

ألفه

القس بولس سباط

الطبعة الثانية

AL-MACHRA

PAR LE P. PAUL SBATH



ألفه

القس بولس سباط

الطبعة الثانية

AL-MACHRA‘

PAR LE P. PAUL SBATH



ألفه

القس بولس سباط

الطبعة الثانية

AL-MACHRA'

PAR LE P. PAUL ṢBATH

تنبيه

MANUSCRITS ORIENTAUX
DE LA BIBLIOTHÈQUE DU P. PAUL SBATH

سيصدر قريباً من احدى مطابع باريس كتاب كبير بالعنوان المتقدم وضعته في بيان ما اشتملت عليه خزانة كتبي بحلب الشهباء مسقط رأسي من المخطوطات القديمة النفيسة بين عربية وسريانية مع شرح واف لمواضيعها ولمحة من تراجم مؤلفيها وهي تبلغ زهاء الف وخمس مئة مخطوط وقد عانيت في سبيل اقتنائها من المشقات وبذلت من النفقات ما لا يخفى على الاديب

بسم الله الهادي

هذه خطب ومحاضرات القيتها في مصر وسوريا وفلسطين متوخياً بها التوفيق بين المسلمين والنصارى فنالت من اقبال الجمهور عليها واستحسانهم لها ما نشطني الى جمعها وطبعها في كتاب تعميماً للفائدة وتلبيةً لفريق من اهل الفضل والادب

وقد دعوت كتابي « المشرَع » تفاؤلاً بأن يكون لطلاّب الحقيقة مورداً والله المسؤول أن يجمع بيننا انه على كل شي قدير

في ١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٤

القس

بولس سباط

المحاضرة الاولى

في شهادات القرآن للنصارى بالتوحيد

جاء في سورة البقرة من القرآن : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » ،[1] فيلزم عن ذلك أَنَّ النصارى موحّدون لا مشركون ، لان المشركين لا أجر لهم ، ويلحق بهم الخوف والحزن

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية : فذهب بعضهم الى أنها منسوخة بقول القرآن في سورة آل عمران : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسْلاَمِ دِيناً

(١) ٦٢

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ »[١] ، وقال آخرون ، انهم أي النصارى ، يستحقون الاجر اذا نبذوا دينهم واسلموا . وكلا القولين مردود :

أما القول بنسخها ، فبأنّ الله الذي وسع علمه الاشخاص والاشياء ، ووعد من آمن به وعمل صالحاً حسن الجزاء ، منزّه عن الخطا المستلزم التصحيح بالتغيير والتبديل ، وغير مخلف وعده بكثير أو قليل ، فالقول بوقوع النسخ في كلامه ، لا يأنس اليه العقل ، ولا يثبته المنطق ، فاما أن يكون المنسوخ من آيات القرآن صدقاً ، والناسخ كذباً ، وإما بالعكس . فان كان المنسوخ صدقاً ، والناسخ كذباً ، كان في ما ورد في القرآن من هذه الآية ونظائرها ، اقوى برهان ، وأبلغ حجة على توحيد النصارى ، إذ

(١) ٨٥

لا تُدفع الحقيقة بالكذب . وإن كان العكس ، وكانت هذه الآية منسوخة ، فقد أخلف الله وعده بالاجر من آمن به وعمل صالحاً ، والله عزّ وجلّ منزّه عن هذه المسكة ، ووقع الخطأ في ما نُسب اليه تعالى من كلام القرآن ، واحتاج هذا الكلام الى التصحيح ، بالنسخ المستحيل وقوعُه في كتاب منزل ، لما قدمنا من عصمة الله من الخطا ، وفي كلا الوجهين عيب ومحل للريب ، في صحة الناسخ والمنسوخ معاً ، لأن العيب في البعض ذاهب بصحة الكل [1]

---

(١) الكلام في الاسفار المنزلة نوعان : اخباري وانشاءي . والانشاءي نوعان أيضاً : عقلي ووضعي . فالنسخ لا يصح وقوعه في الاخباري لأنه يستلزم تكذيب رواية مطابقة الواقع . ولا يمكن وقوعه في الانشاءي العقلي أيضاً لأنه يستدعي نقض المباديء الطبيعية التي لا تقبل التغيير كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . أما الانشاءي الوضعي فالنسخ جائز فيه لامكان تغيير الغرض بتغير احوال الزمان والمكان والاشخاص كالأمر باقامة الشعائر الدينية

وأمّا القول باستحقاقهم الاجر إذا أسلموا ، فبنصّ الآية الواردة خلواً من هذا الشرط ، أو ما يدل عليه ، ولا محل فيها للاضمار ، إذ « لا مساغ للاجتهاد في مورد النص »[1] ، ولو كان الاسلام شرطاً لنيل الاجر ، لما كان من وجه لذكر « الذين آمنوا » ، والزامهم هذا الشرط ، في سياق كلام الآية على أقوام غيرهم ، لأن الاسلام عند المسلمين لفظ مرادف للايمان ، والايمانُ لا يُشترط على المؤمن . ومَن تدبر الآية بالروية وتقصّي النظر ، رأى ، في خروج المتكلم من التخصيص الى التعميم ، بقوله « من آمن بالله » ، ما يشمل بالاجر كلّ من « عمل صالحاً »

في أماكن معينة والنهي عن بعض الأطعمة في أزمنة معلومة . ومن هذا القبيل كان نسخ العهد القديم بالجديد فانه لم ينفِ أمراً واقعاً ولا نقض مبدأ طبيعياً

(١) المادة ١٤ من شرح المجلة . المجلد الاول صفحة ٢١ المطبوع في المطبعة الادبية ببيروت سنة ١٨٩٨

من طوائف المؤمنين « بالله واليوم الآخر » بلا شرط الاسلام

وقد نهى القرآن المسلمين في سورة البقرة عن نكاح المشركات ، وهنّ على الشرك ، بقول الآية : « ولا تنكِحوا المشركاتِ حتى يؤمِنّ »[1] ، وأباحهم الزواج بالنصرانيات ، بلا قيد ولا شرط ، سوى عفاف الزوجين ، وما فيه الحرص على حقوقهنّ أن تُهضم بطامع أو شبَق ، على ما جاء في آية من سورة المائدة : « أليومَ أُحِلَّ لكمُ الطَّيّباتُ وطَعَامُ الذينَ أُوتوا الكِتابَ حِلٌّ لكمْ وطَعامُكمْ حِلٌّ لهمْ والمحصَنَاتُ مِنَ المؤْمناتِ والمحْصَناتُ مِنَ الذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبلِكمْ إذا آتَيتُموهُنَّ أُجورَهُنَّ مُحْصِنينَ غَيرَ مُسافِحِينَ

---

(١) ٢٢١

وَلا مُتَّخِذِي أَخدَانٍ »[١] ، فلو اشتمّ في النصرانيات رائحة الشرك ، لما عدّلهنّ بالمؤمنات ، ولحظر الزواج بهنّ على المسلمين ، وكان الايمان أو الاسلام شرطاً في ذلك ، على أن الآية ، بقولها « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنّ أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان » ، قد جعلت دفع مهورهنّ شرطاً ، وقضت على المسلمين بالعفة والزواج الشرعي ، فسوّت حقوق المحصنات من أهل الكتاب ، بحقوق المحصنات من المؤمنات بلا تمييز بينهنّ ، اللهمّ إلاّ في قولها « من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » ، وفيه اعتراف بيّن بسبق النصارى الى الايمان

ولما ثبت هذا الاعتراف ، انتفى معه أن يكون النصارى من المشركين الذين أُمر المسلمون بقتلهم ، بقول الآية :

---

(١) ٦

« فاذا انْسَلخَ الاشهُرُ الحرُمُ فاقتُلوا المشركينَ حيثُ وَجدتموهمْ وَخذُوهمْ واحصُروهمْ واقعُدوا لهم كلَّ مَرصَدٍ فان تابوا وأقامُوا الصلوةَ وآتوا الزكوةَ فخلّوا سَبيلَهُم إنَّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ »[1] ، ولا سيما ان الاسلام أمر بحقن دماء النصارى وحمايتهم ، إذا هم دفعوا الجزية ، وهي لا تؤخذ بدل الكفر ، وإلاَّ كان آخذها مشاركاً فيه ، وله منه السهم الاوفر ، لما في عمله من التجاوز عن المحظور بالبدل ، والخروج في ذلك عن قاعدة ايمانه ، والايمانُ لا يباع ، والكفر لا يُشرى .

ومن أنعم النظر في آي القرآن ، رأى فيها من العدل والمساواة ، ما يجعل المسلمين والنصارى في كفّتي ميزان ، كلّ منهما يعدل الاخرى ، كما في نص الآية : « وَلولاَ دَفعُ اللهِ النـاسَ بَعضَهُمْ ببعضٍ

(١) سورة التوبة ٦

لَهُدِمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً »[١] ، فانها قد سوّت الصوامع والبيع التي هي للنصارى ، بالمساجد التي هي للمسلمين ، وأقرّت للفريقين بذكر الله ، الذي معناه التوحيد

ويرى المتبصرون المنصفون ايضاً في أضعاف القرآن ، من المصارحة بإيثار النصارى على غيرهم ، وبالركون الى مودتهم ، ما ينجلي به ريب المرتاب بعقيدتهم ، كما في قول الآية : « لَتجدَنّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذينَ آمنوا اليهودَ والذينَ أشركوا ولَتجدَنّ أقربَهمْ مودّةً للذينَ آمنوا الذينَ قالوا إنّا نصارى ذلكَ بأنّ منهمْ قسّيسينَ ورُهباناً وأنّهمْ لا يستكبرونَ »[٢] ، وكفى بهذه الآية تصريحاً بأن النصارى هم خير

(١) سورة الحج ٤٠
(٢) سورة المائدة ٨٥

المشركين ، الذين يعنيهم القرآن في بعض آياته ، وأنهم اقرب مودة للمسلمين ، فان الكافر عدوّ للمؤمن ابداً ، لما بينهما من الفرق في العقيدة .

فتحتم بهذه المصارحة من كلام القرآن عينه ، أن النصارى لا تشوب دينهم شائبة الشرك ، ولا يعلق بهم شيء مما يتهمهم به اعداؤهم ، بل شأنهم الورع والصلاح والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة في الخير ، مما لهم فيه مزية على سواهم من أهل الكتاب ، بدليل قول الآية ، بعد كلام في ذم اليهود : « لَيسوا سَواءً مِنْ أهلِ الكتابِ أُمةٌ قائمةٌ يَتلون آياتِ اللهِ آناءَ الليلِ وهُمْ يَسجدونَ . يُؤْمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنهَونَ عن المُنكرِ ويُسارعونَ في الخيراتِ وَأولئكَ مِنَ الصَّالحينَ »[1] . وبالاجمال ، ان آي

(١) سورة آل عمران ١١٣ و ١١٤

القرآن الناطقة بتوحيد النصارى وصحة مذهبهم كثيرة ، لا يسع المقامُ ذكرها برمّتها

فمن كانت هذه مزاياهم ، لا يصدق فيهم ، ما افتأته عليهم بعض المفسرين ذوي الاغراض السيئة ، من تهمة الشرك والكفر ، مستندين في ذلك الى نص الآية : « لقدْ كفرَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلثة »[1] ، يؤوّلونها بثالوث النصارى ، ولا وجه للتشبيه بين تلك البدعة الفاسدة ومعتقدهم ، الذي هو توحيد الله في ذاته ، وتثليثه في خواصه ، على ما أبانه علماء الكلام منا ، وسنبينه نحن ايضاً بكل ايضاح ، وانما المراد بالضمير من كلمة « قالوا » جيل بعينهم من النصارى ، وهم المرقيونية القائلون بآلهة ثلاثة : عادل انزل التوراة ، وصالح نسخها بالانجيل ، وشرير وهو

---

(١) سورة المائدة ٧٦

ابليس [١] ، وتلك شر بدعة وُجدت في النصرانية قبل ظهور الاسلام ، [٢] واستفحل ضلالها ، فحظرتها الكنيسة ، وجاء القرآن ، فتابعها على تكفيرها ، ولعله بقوله : « لا تتخذوا إلهين اثنين » [٣] ، قد تابعها أيضاً على تكفير المانوية والديصانية ، [٤] فهم من المبتدعة عندنا ، وحُكمُنا فيهم كلهم ، حكمُ المسلمين في الخارجين عن سنّة الاسلام ، كالنُّصيرية القائلين

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري صفحة ١٢٢ المطبوع بمطبعة اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠

(٢) وجد في القرن السادس قوم آخرون سموا الطريثونية أي المثلثة لأنهم كانوا يقولون بثلاثة آلهة

Trithéiste, Encyclopédie universelle par Paul Guérin

(٣) سورة النحل ٥١

(٤) المانوية والديصانية من مارقة النصارى يقولون بالهين : احدهما خير وهو معدن النور . والآخر شر وهو معدن الظلمة . كتاب الملل والنحل للشهرستاني . الجزء الاول صفحة ١٤٣ و١٤٧ بالمطبعة العثمانية

بأن الله تعالى ظهر بصورة عليّ ، ونطق بلسانه مخبراً عما يتعلق بباطن الاسرار ،[1] وغيرهم ممن غالوا في حق أئمتهم ، حتى اخرجوهم من حدود الخليقة ، وحكموا فيهم بأحكام الهية[2] . فلا يعلق بالمسلمين شيء من فساد اعتقاد هؤلاء الغُلاة ، ولا يلحقنا عيب من كفر أولئك المبتدعة ، لنا ديننا ولهم دينهم . ولما كان القرآن قد أقرّ لنا بالسبق الى الايمان ، وأثبت أجرنا في الآخرة ، كما اسلفنا ، كان ما رمى به أولئك المبتدعة غيرَ موجّه الينا ، ولا سيما وهم قد انقرضوا منذ قرون بعيدة وخلت الارض منهم

(١) الملل والنحل . الجزء الاول صفحة ١٠٩

(٢) الملل والنحل . الجزء الاول صفحة ١٠٠

المحاضرة الثانية

— ١ —

في أنه الله تعالى أحدي الذات ثلاثي الخواص

ان اقسام الموجود ثلاثة ، لا تتعدى الى رابع : حيٌّ ناطق ، وحيٌّ غير ناطق ، ولا حيٌّ ولا ناطق ، وأولها أشرفها بلا نكير ، لأن الله قد براه من العدم ، وميزه بالحياة والنطق عن الكائنات ، وبسط يده عليها طراً ، فالله إذاً موجود ، ويتحتم أن يكون حياً ناطقاً ، وأشرفَ الموجودات ، لأنه بارئها ، وإلاّ كان الحيُّ الناطق ، وهو مخلوقه ، فاضلاً له تعالى ، في ما هو نفسه قد فضّله به على المخلوقات ، وهذا محال . ولما تقرر أنه حي ناطق ، وأنه الباري من العدم ، تقرر أنه ازلي بلا بداءة ولا نهاية ، وأن

نطقه وحياته منه ، لا من غيره ، وأنهما أزليان بأزليته ، وإلاّ كان مخلوقاً ، وهو الخالق ، وهذا أيضاً محال . وإذ ثبت وجوده وأزليته ، وأنّ نطقه وحياته ازليان بأزليته ، كان وجوده إذاً عبارة عن صفة الابوّة ، ونطقه عن صفة البنوّة ، وحياته عن صفة الانبثاق ، وتلك صفات روحية جوهرية ، وإلاّ لزم أن تلحقه الاعراض ، وهو منزّه عنها ، كما سيأتي . . وهذا الموجود الحي الناطق من الازل ، هو الثالوث الالهي ، الواحد الذات والجوهر ، الغير المنقسم بوجه من الوجوه الفرضية ، لأن وقوع القسمة في الروحي البسيط منفي منطقياً ، فلا يُتصور حصولها في أبسط الموجودات المجردة الروحية واشرفها ، وانما تكون في الخواص الالهية فقط ، وهي الوالدية ، والمولودية ، والانبثاقية ، وليست هذه الولادة كالولادة الطبيعية ، التي يسبق فيها الوالد

المولود ، بل هي ولادة أزلية دائمة البقاء ، وهذا هو الاعتقاد الصحيح

على أن مَثلَ ولادة الابن العجيبة من الآب ، وانبثاق روح القدس منهما ، مَثلُ صدور النور من لهَب النار ، وانبثاق الحرارة منهما ، فحيثما وُجد اللهب ، وُجد النور والحرارة معاً ، غير أن اللهَب يبدو للرائي علة النور والحرارة ، وهي كلها نار ذات جوهر واحد ، فلا يصح أن يقال هذه ثلاث نيران ، بل نار واحدة بخواصّ ثلاث ، وإن دُعي كل منها ناراً ، فليس ذلك ، إلاّ بشرط وجود الخاصتين الأُخرَيين فيها

ومثل ذلك النفس والنطق والحياة ، أو الشمس والشعاع والحرارة ، فليس النطق والحياة بأسبق من النفس الى الوجود ، ولا بمتأخرَين عنها ، وليس الشعاع والحرارة بأسبق من الشمس الى الوجود ، ولا

بمتأخرَين عنها ، وإن ظهر أن النفس علة النطق والحياة ، وأن الشمس علة الشعاع والحرارة ، بل كل واحدة من النفس والشمس ، موجودة بوجود خواصها المقوِّمة لكيانها

فالأقانيم الالهية إنما هي على نحو ما ضربنا من الامثال . فنحن إذا قلنا ان كلاً منها هو الله ، فذلك على أن الاقنومين الآخرين ملازمان له ، وأن كل ما هو للواحد منهما ، هو للآخر ، ما خلا الخاصة المتميّز هو بها ، فالآب والد أبداً ، والكلمة أو الابن مولود منذ الازل ، وروح القدس منبثق منهما انبثاقاً سرمدياً . تبارك الله العظيم الاحدي الذات الثلاثي الخواص

—٢—

في ان قول النصارى : كل واحد من الاقانيم هو الله ، لا يعني وجود آلهة ثلاثة

قد بيّنا سابقاً أن جوهر الاقانيم واحد ، وخواصّه ثلاث ، وكل اقنوم ذُكر منها ، فذكرُه مقرون بشرط ملازمة الاقنومين الآخرين له ، مع تميُّز الخواص ، فالقول بثلاث خواص ، لايستفاد منه القول بثلاثة آلهة ، لأن عدد الخواص ، لا يستلزم عدد الذوات ، وإلاّ لزِمنا القول بنيران ثلاث ، وأنفس ثلاث ، وشموس ثلاث ، وهو محال كما مرّ

وللزيادة في الايضاح نقول : ان الله عزّ وجلّ احدي الجوهر ، ثلاثي الخواص ، وكل اقنوم مستقلّ بخاصة ليست لغيره ، فاذا نظرتَ في خواص هذه

الاقانيم ، علمت أن ليس لاحد منها خاصة الآخر ، وأدركت أن جوهرها واحد فقط ، لايعرِض له تغير ولا انفصال ، ولذلك قلنا ان الله جوهر واحد ، ولكنّ قولنا هذا إنما هو في حال اطلاق الكلام على الثالوث ، أما إذا أُطلق على كل من الاقانيم ، فلا بدّ من وصفه بالخاصة المتميّز هو بها

فاذا نظرتَ مثلاً الى طينة مختومة بثلاثة أختام مختلفة النقوش ، وجدتها واحدة ، لأن جوهر الطينة واحد ، وإذا ميّزتها بنقوشها ، تسنّى لك الفرق بين نقش وآخر ، ولزمك أن تطلق على كل منها اسماً خاصاً ، يمتاز به من سواه ، كما هي الحال في غير ذلك من المسمّيات

قال بعض المسلمين لابي الخير ابن الطيّب : « ان الانجيل بقوله : امضوا وتلمذوا كل الامم ، وعمّدوهم باسم الآب والابن وروح القدس . قد أوجب عليكم

الاعتقاد بثلاثة آلهة . فأجابه : « لا ريب في أن لُباب الشريعة المسيحية ، هو الانجيل ورسائل بولس الرسول وأخبار الحواريين ، وهذه الكتب الثلاثة ، واقوال علماء النصارى المنبثة في آفاق الارض ، تشهد بتوحيدهم لله ، وبأن أسماء الآب والابن وروح القدس ، انما هي خواص لذاته الواحدة ، ولولا حبُّ الايجاز ، لأتيتُ على اثبات عقيدتهم مفصلا ، ولكنني مع ذلك اقتضب من اقوالهم ، الناطقة بصحة معتقدهم وقويم ايمانهم ، مالا يخلو من فائدة فأقول :

« يرى النصارى أن البارئ تعالى جوهر واحد ، موصوف بصفات الكمال ، وله ثلاث خواص ذاتية ، كشفَ المسيح عنها القناع ، وهي الآب والابن وروح القدس . ويُشيرون بالجوهر ، الذي يسمّونه البارئ ذا العقل المجرد ، الى الآب . وبالجوهر نفسه ، الذي يسمونه ذا العقل العاقل ذاته ، الى الابن .

وبالجوهر عينه ، الذي يسمونه ذا العقل المعقول من ذاته ، الى روح القدس . ويريدون بالجوهر ما قام بنفسه مستغنياً عن الظرف

« وقد فسّر الامام العلاّمة أبو حامد محمد الغزّالي عقيدتهم هذه في كتابه « الرد الجميل » ، فقال : يعتقد النصارى أن ذات الباريء تعالى واحدة في الجوهر ، ولها اعتبارات :

« فان اعتُبر وجودها غير معلّق على غيره ، فذلك الوجود المطلق ، هو ما يسمّونه بأقنوم الآب

« وإن اعتُبر معلقاً على وجودٍ آخر ، كالعِلم المعلق على وجود العالِم ، فذلك الوجود المقيّد ، هو ما يسمونه بأقنوم الابن أو الكلمة

« وإن اعتُبر معلقاً على كون عاقليته معقولةً منه ، فذلك الوجود المقيّد ايضاً ، هو ما يسمونه بأقنوم روح القدس ، لان ذات الباريء معقولة منه

« والحاصل من هذا التعبير الاصطلاحي ، أن الذات الالهية واحدة في الجوهر ، وإن تكن منعوتة بصفات الاقانيم

« ويقولون ايضاً :

« ان الذات ، من حيث هي مجرّدة لا موصوفة ، عبارة عن معنى العقل ، وهو المسمّى عندهم بأقنوم الآب

« وإن اعتُبرت من حيث هي عاقلة ذاتها ، فهذا الاعتبار ، عبارة عن معنى العاقل ، وهو المسمى بأقنوم الابن أو الكلمة

« وإن اعتُبرت من حيث ان ذاتها معقولة منها ، فهذا الاعتبار ، عبارة عن معنى المعقول ، وهو المسمى بأقنوم روح القدس

« فعلى هذا الاصطلاح ، يكون العقل عبارة عن ذات الله فقط ، والآبُ مرادفٌ له . والعاقل عبارة

عن ذاته بمعنى أنها عاقلة ذاتها ، والابنُ أو الكلمة مرادف له . والمعقول عبارة عن الاله المعقولة ذاته منه ، وروحُ القدس مرادف له ايضاً

« ثم عقّب قائلاً : إذا صحت المعاني فلا مُشاحّة في الالفاظ ، ولا في اصطلاح المتكلمين » [١]

---

(١) عن نسخة قديمة من كتاب أصول الدين لأبي الخير ابن الطيب المعاصر للغزالي صفحة ١٥٣ وهي محفوظة في خزانة مخطوطاتنا

— ٣ —

فى رد من قال : ان النصارى باعتقادهم أنه الله تعالى جوهر ، يجعلونه قابلاً للعرض كسائر الموجودات

ان الموجود نقيض المعدوم ، وهو ما أمكن إدراكه بالحواس الخمس ، أو ما تصوّرَه العقل وأمكن الاخبار عنه ، وتنقسم الموجودات الى جوهر وعرَض :

فالجوهر كل موجود قائم بذاته ، غير مفتقِر في قيامه الى غيره ، ولكنه مع ذلك قابل للعرض ، بما يلحقه منه ، كالانسان مثلاً ، فهو قابل للعرض ، وإن كان جوهراً ، وذلك لما يعرض له من التغيّر ، كأن يكون جاهلاً ، فيصير عالماً . والله عزّ وجلّ داخل في هذا التعريف ، من وجه أنه موجود قائم

بذاته ، لا من وجه أنه جوهر كالجواهر المخلوقة ، لأنه لا يقبل العرض ، ولو قبله ، لكان كسائر الموجودات ، وليس هذا ما نريد بوصفه تعالى بالجوهر ، وإنما نريد بذلك قيامه بذاته ، إذ ليس له من معاني الاسماء والصفات إلا كمالاتها ، والمخلوقُ له نقائصها ايضاً ، وشتّان ما بين الخالق والمخلوق .

وأما العرض ، فهو ما لا يقوم بذاته ، بل يفتقر في قيامه الى غيره ، كالعلم في الانسان ، فانه لا يوجد إلاّ بوجوده . والله سبحانه يتعالى عن أن يفتقر الى غيره ، وهو موجد الموجودات وعلة الجواهر والأعراض ، فهو إذاً جوهر ، لأن الموجودات بأسرها ، إما جوهر ، وإما عرض ، ولا ثالث لهما

قال محمد ابن الطيّب المعروف بابن الباقلاني في كتابه « الطمس في القواعد الخمس » — : « اعلم أنّا إذا أنعمنا النظر في قول النصاري ، ان الله جوهر واحد في

ثلاثة اقانيم ، لا نجد خلافاً بيننا وبينهم إلا في اللفظ فقط ، لانهم يقولون انه جوهر لا كالجواهر المخلوقة ، ويريدون بذلك أنه قائم بذاته ، والمعنى صحيح »[(١)]

وقال أبو جعفر محمد بن محمد الاشعب في المقالة الاولى من كتابه « في العلم الالهي » — : « قد تبين أن المحرّك الاول أوّلُ على الاطلاق ، فهو إذاً علة الموجودات كلها ، وفي هذه الحال هو احد اثنين : إما جوهر ، وإما عرض . ومحال أن يكون عرضاً ،

---

(١) رواه بعضهم في مخطوط يرجع تاريخه الى القرن الحادي عشر للمسيح في صفحة ٦٣ وهو محفوظ في مكتبتنا . ورواه ايضاً ايليا مطران نصيبين في الرسالة التي أنفذها الى ابي العلاء صاعد بن سهل الكاتب وقد ذكر فيها المجالس التي جرت بينه وبين الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي سنة ١٠٢٦ . راجع صفحة ١٠٨ من كتاب المقالات الدينية القديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارى المطبوع في مطبعة اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٠٦

لأن الجوهر علة وجود العرض ، والله علة وجود كل شيء ، ولولا الجوهر لم يوجد العرض ، فيتعين أن يكون جوهراً ، أو شيئاً أشرف من الجوهر ، أو جوهراً خاصاً له ، أو ذاتاً ، أو ما شئت أن تسمّيه من نحو ذلك ، إذ لا فرق فيه مع سلامة المعنى وحفظه »[١]

فيرى أهل البصائر أن لا خلاف بيننا وبين المسلمين بقولنا ان الله جوهر ، لاننا نعني به جوهراً لا كالجواهر المخلوقة ، وإلا كان مِثلَ قولنا قولُ القرآن : ان الله حيّ ،[٢] عليم ،[٣] قدير ،[٤] سميع ،[٥] بصير ،[٦]

---

(١) في المخطوط عينه صفحة ٦٤ . ورسالة ايليا المذكورة آنفاً صفحة ١٠٧ من كتاب المقالات الدينية القديمة الذي أشرنا اليه في الحاشية السابقة

(٢) : « هو الحي لا اله الا هو » سورة المؤمن ٦٥

(٣) « وهو بكل شيء عليم » سورة البقرة ٢٩

(٤) « ان الله على كل شيء قدير » سورة البقرة ٢٠

(٥) « انه هو السميع العليم » بسورة الانفال ٦٢

(٦) « انه بكل شيء بصير » سورة الملك ١٩

يرينُ عليه السخط ،[1] والغضب ،[2] وله عينان باصرتان ،[3] ويدان مبسوطتان ،[4] وانه يستوي على العرش ،[5] ويجيء والملائكة صفاً صفاً ،[6] ويدنو ويتدلى .[7] ومثله ايضاً قول

---

(١) « أن سخط الله عليهم » سورة المائدة ٨٣

(٢) « وغضب الله عليه » سورة النساء ٩٢ — وورد في الحديث :« ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله » صحيح البخاري. الجزء الرابع صفحة ١٠٦

(٣) «واصنع الفلك بأعيننا » سورة هود ٣٧

(٤) « بل يداه مبسوطتان » سورة المائدة ٦٧

(٥) « ثم استوى على العرش » سورة الاعراف ٥٣

(٦) « جاء ربك والملك صفاً صفاً » سورة الفجر ٢٢

(٧) « ثم دنا فتدلى » سورة النجم ٨

الحديث : ان لله ساقاً يكشف عنها ،[١] وانه يتقرب ذراعاً ممن يتقرب منه شبراً ، ويأتي هرولةً من يأتيه مشياً .[٢] الى غير ذلك مما يضيق المقام عن احصائه ، وكلّه من صفات الجوهر القابل للعرض . وعقلاء المسلمين ينزهون الله عنها ،[٣] كما ننزهه نحن ، وانما الخلاف بيننا وبينهم في حد الجوهر ، فهو عندهم ما قبل العرض ودخل في حيّز ، فلا يصح في اعتقادهم

---

(١) « يكشف ربنا عن ساقه » صحيح البخاري . الجزء السادس صفحة ٧٢ بمطبعة دار الطباعة العامرة

(٢) « اذا تقرب العبد مني شبراً تقربت منه ذراعاً واذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً أو بوعاً واذا أتاني مشياً أتيته هرولة » صحيح البخاري . الجزء الثامن صفحة ٢١٢

(٣) من المسلمين فرق كالمشبهة والكرامية يجعلون لله اعضاء ويقولون انه جسد وله يد وعين . الملل والنحل . الجزء الاول صفحة ٥٨ و٦١

القول بأن الله جوهر ، لانه لا يقبل عرضاً ولا يشمله ظرف ، [١] وعندنا انه كل موجود قائم بذاته ، قابل للعرض والحيز ، فالله تعالى داخل في هذا التعريف ، من حيث انه موجود قائم بذاته ، لا من حيث انه قابل للعرض والحيز ، وكلا القولين صحيح

---

(١) الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم . الجزء الخامس صفحة ٧٣ بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١

- ٤ -

في رد منه قال : ان النصارى يدعون الله أبا
لهم ولابنه الكلمة ولا ولادة الا من زوجة

ان الابوّة قسمان : عامة وخاصة

والابوّة العامة قسمان ايضاً : أبوة بمعنى أن الله أبو الكل ، أي علة المبروءات والسبب الاول في وجودها . وأبوة نعمٌ المؤمنين ، وهي أبوة الانعام بالايمان على من آمن به . فلا يُنكر علينا أن نسميه أباً بالخلق والانعام ، وقد لقّبه القرآن « بنور السَّماوَاتِ وَالارْضِ »[1] ، ودعاه صاحب الشريعة الاسلامية دهراً ، بقوله : « قال الله ، يسبُّ بنو آدم

(١) سورة النور ٣٥

الدهر ، وأنا الدهر ، ولا تقولوا خيبة الدهر ، فان الله هو الدهر »[1] ، مع أن النور جسم مكيّف ، والدهر هو الظرف المستوعِب حركاتِ الفلك ونظامَ اجرامه ، وسائرَ افعال الانام ، وكلُّ ذلك في محيط من أزلية المنشئ البديع السابقة كل انشاء ، وفي قيد من مشيئته التي وسعت كل بقاء وفناء

فالنور والدهر معلولان بالوجود لله علة العلل ، وهو الذي اجمع على توحيده والاقرار بأزليته ، اهل الرشد من جميع الملل والنحل ، والمسلمون غير مخالفينا في هذه العقيدة الصحيحة ، فوصفُهم لله عزَّ وجلّ بالنور والدهر ، وهما من مخلوقاته ، لو فُسّر بظاهره ، لكان فاسد القياس ، للفرق الكائن بين العلة ومعلولها ، واستحالة المشابهة بينهما ، وإلاّ كان كلاهما قيّوماً بلا بداءة ولا نهاية ، وذلك غاية العمى

(١) صحيح البخاري . الجزء السابع صفحة ١١٥

عن ضياء الحقيقة ، ومنتهى الالحاد والتعطيل ، وليس المسلمون في شيء من ذلك ، ولا هم يريدون بتشبيه الله بالنور والدهر ، مماثلتهما له أزليةً وقيوميةً ، وإنما يريدون بالنور الهدى ، وبالدهر ظرفاً للاحداث الواقعة فيه ، وكلاهما صنعُ الله القدير ، ولا يستوي الصانع والمصنوع ، وانما نهى الحديث عن سبّ الدهر ، ذهاباً الى أن الطعن على المصنوع لاحقٌ بالصانع ، فاذا أُوجب على المسلمين التقيد بهذا التأويل ، فلا يلحقهم ما في ظاهر التشبيه من الخطا ، كما لا يلحقنا اثم من وصف الخالق بصفة الأبوة خلواً من مقتضياتها الطبيعية ، اذ معنى الابوة أنه تعالى العلة الاولى للمبروءات ، والمنعم على عباده إنعام الاب على بنيه ، بل يجب علينا أن ندعو الله أباً لنا بالخلق والانعام ، اخذاً بما فرض علينا الانجيل الطاهر ، حيث قال : « لاتدعوا لكم أباً على الارض ، فان أباكم واحد ،

وهو الذي في السماوات »[١] ، وحيث قال ايضاً :
« وانتم فصلّوا هكذا : أبانا الذي في السماوات »[٢]

دخل إيليّاء مطران نصيبين على الوزير الكامل أبي القاسم الحسين بن عليّ المغربي ، فسأله الوزير : « كيف تدعون الله أباً مع علمكم وفضيلتكم ، وهو شرك صريح ؟ » ، فأجابه : « ذلك ، أيها الوزير ، توحيد صحيح ، لا شرك صريح ، لأن الذي عليه الاجماع ، هو أن العالم معلول ، وما من معلول إلا وعلته الفاعلة له ، إما واحدة ، مثل الابن الذي علته أب واحد ، ولا يجوز بل لا يصحّ أن يشاركه فيه سواه . وإما غيرُ واحدة ، مثل البيت الذي تتعدد علله ، لعجز الفرد عنه والحاجة فيه الى التعاون . والخالق غير ضعيف ولا مفتقر الى ذلك ، فهو وحده علة العالم ،

(١) انجيل متى ٢٣ : ٩
(٢) انجيل متى ٦ : ٩

ولا تشاركه فيه علة أخرى ، فكما ان الأب علة للابن من غير شريك فيه ، ولا يسوغ أن يكون للابن اكثر من أب ، كذلك لا يسوغ أن يكون للعالم اكثر من خالق ، فالنصارى يدعون الخالق أباً لهم لتتقرر عندهم وحدانيته ، كما تقررت في نفس كل من الناس وحدانية أبيه » . فأجاد المطران الجواب ، إذ اتخذ كلام الوزير دليلاً على التوحيد ، وأُعجب الوزير ببداهته فقال له : « لقد سعدت أمة أنت رئيس عليها » (١)

أما الابوة الخاصة ، فهي أبوة الذات الالهية لنطقها ، أي لكلمتها الازلية المتحدة بها اتحاداً دائماً ، بلا انفصال ولا زوال ولا تقدم على الذات ولا تأخر عنها في حال من الاحوال . والولادة اسم مشترك ، يُطلق على البسيط العقلي ، وعلى المركب الحسي .

---

(١) عن مخطوط قديم أشرنا اليه سابقاً صفحة ٣٧ منه

والله عزّ وجلّ منزّه عن التركيب والحس ، وهو قائم بذاته وعلة العلل ، وقد ثبت أنه قيُّوم غير مفتقر في وجوده الى غيره ، وعليه فلا تكون ولادته معلولة ، بل كصدور النور من النار ، والشعاع من الشمس ، والنطق من النفس ، اذ كل من النور ، والشعاع ، والنطق ، مستقر في ذات النار ، والشمس ، والنفس ، لا يفارقها ابداً كما مرّ ، فبنوة الكلمة الازلية اذاً ، هي البنوة المولودة من الآب قبل كل الدهور ، والموجودة فيه ومعه بلا تقدم ولا تأخر ولا اتصال ولا زوال .

فان سفّهنا المسلمون ونعوا علينا قولنا بالابوة والبنوة ، لزمهم العيب قياساً ، لما أُطلق على ذات الجلالة في كلامهم من الاسماء والصفات المشتركة المعاني بين الخالق والمخلوق ، وانما لله منها كمالاتها لا نقائصها ، وامتنع عليهم تأويل ما وصفوه به من لفظ النور

والدهر وغيرهما . أو قالوا : إنّا لم نُرِد بتلك الاسماء والصفات ما ذهبتم اليه من التفسير ، بل معنى من معانيها ، لا تتغير به ذاته ، ولا تماثله فيه مبروءاته ، قلنا : نحن ايضاً لم نُرِد بالابوة والبنوة ، ما ذهبتم اليه من معانيهما التي توصف بها المخلوقات لا الخالق ، بل أردنا منها ما لا يَمسّ أزليته ، ولا يَغُضّ من جوهره ولا تشابهه فيه مبروءاته ، تعالى الله عن ذلك وتقدست اسماؤه وصفاته

هذا وقد يقع بين أرباب المذاهب في بعض التفاسير ، من الاختلاف اللفظي مع الاتفاق في المعنى ، ما يتوهمون أنهم فيه مختلفون ، وهم في الحقيقة متفقون ، كما في قول النصارى ان الله جوهر ، وهم يريدون بالجوهر ما قام بذاته ولم يفتقر في قيامه الى غيره ، أما المسلمون فينكرون ذلك ، ويخطّئوننا فيه ، لأن الجوهر في عُرفهم هو ما

يقبل عرضاً ويدخل في حيز ، والاله منزه عن هذا الوصف ، فهو إذاً غير جوهر في حُكم المسلمين ، وجوهر في حكمنا ، لأن الجوهر عندنا ما قام بذاته ، والخالق قائم بذاته ، وغير قابل للعرض ، فنحن والمسلمون متفقون والحالة هذه في معنى قيامه بذاته ، وعدم قبوله للعرض ودخوله في حيز ، وانما الخلاف بيننا في حد الجوهر وكيفيته ، ولا عبرة بهذا الاختلاف اللفظي مع اتفاقنا في المعنى كما ذكرنا .

ومثل ذلك اختلافنا ايضاً في البنوة ، فهي عندنا كناية عن خاصة كلمة الله الازلية ، وبنوة روحانية لامادية ، لان البنوة من طبيعة الابوة ، والله سبحانه روحاني لا مادي ، وبنوته من طبيعته نفسها . وعند المسلمين منفية عنه البنوة ، اخذاً بقول القرآن : « رَبّنا ما اتّخذَ صاحِبةً وَلا وَلداً »[1] ، يريدون بذلك أن لا

(١) سورة الجن ٣

ابن إلا من أب ، ولا خلاف بيننا في حد هذه البنوة المادية ، وإنما الخلاف من وجه التعبير اللفظي عن الكلمة بالابن ، والآية غير موجهة الينا ، بل الى المرقيونيـة من مبتدعة النصارى ، لأن زعيمهم مرقيون كان من فاسد معتقده القول بثلاثة آلهة : إله عدل ، وإله خير ، وإله شر ، كما اسلفنا ، وبأن العدل اتخذ الهيولى صاحبة له ، فولد منها العالم وابن الله ،[1] فلا يلزمنا ضلال أولئك المبتدعة ، كما لا يلزم المسلمين فساد اعتقاد النُصيرية وغيرهم من الغُلاة ، الذين بالغوا في حق أئمتهم وحكموا فيهم بأحكام الهيـة ، على ما ذكرنا في غير هذا الموضع .

سُئل أبو الفرج عبد الله ابن الطيّب عن ماهية الدين النصراني ، فقال : « يشبه دين النصارى درة

(١) عن كتاب الملل والنحل . الجزء الاول صفحة ١٤٨ — ومخطوط قديم محفوظ في مكتبتنا صفحة ١٣٠

سنية في أغشية كثيفة ، كلُّ دليل يقوم عليه ، غشاءٌ ينكشف عنه ، فاذا ظهرت هويّته بالبراهين ، وانجلى سبيله بالادلة ، انهتكت عنه سجوف الشك ، وتألّقت حقيقته بنور اليقين ، وأكثفُ الاغشية ، قولهم بأن الكلمة الازلية ابن الله ، فهو لفظ ينفر منه السمع ، وينبو عنه الذهن ، فاذا أُيّد البرهان أنه ابن روحاني وولد عقلي ، حصحص الحق وظهرت حجته على الباطل واهله ، لان معناه أن الله أبو علمه أي كلمته ، ووالد نطقه أي حكمته »[1]

فلا نظن احداً يشنّع علينا تسميتنا كلمة الله الازلية بالابن ، أو يقدح في حقيقة معتقدنا المثبتة بكل هذه البيّنات

(١) عن المخطوط عينه صفحة ١١٧

— ٥ —

في شهادات القرآن للنصارى بالتثليث

لقد أبنّا في ما مرّ أن النصارى لا يجنحون الى تثليث الله عزّ وجلّ ، كما يفسر مناوئوهم اقوالهم ، وانما يريدون تثليث خواصه الذاتيـة مع توحيده في الجوهر ، وأقمنـا على ذلك من البراهين والاقيسة العقلية الصحيحة ، مالا يحتاج الى مزيد ، إلاّ كما يحتاج النهار الى دليل ، ولو تدبر المسلمون كلام القرآن بالروية لعلموا أنّا على محجة الايمان ، ولم يلزم لاقطاعهم بالحجة شيء مما ذكرنا ، فان في كثير من نصوصه ما يُثبت معتقدنا بالتثليث ، الذي جاء عندنا منظوماً في سلك البسملة ، وعنـدهم منثوراً في القرآن بين كلماته وضمن سوره وآياته

ففي سورة آل عمران : « إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ »[1] ، وفي سورة البقرة : « وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ »[2] ، فكأني بصورة التثليث قد انعكست على مرآة القرآن ، فابرزها بهاتين الآيتين وامثالهما ، صادعةً به بافصح بيان ، قاطعةً السنة اهل الزور والبهتان ، والمسلمون يرتّلون في قراءتها ، وهم لا يأبهون لِما فيها من المطابقة لاعتقاد النصارى ، لفظاً ومعنى ، على أنّ اسم الجلالة في الآية هو الآب ، كما يُستنتج من تسمية المسيح بالابن ، وإلا اقتضى قول الآية « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » أن يَستذئبَ هذا الابنُ المولود من امّ أباً كآباء الآدميين ، أو أباً أزلياً فائق الطبيعة ، لاقتضاء

(١) ٢٥ (٢) ٨٧

البنوة أبوة في كل حال ، وفي القرآن ما ينزه المسلمين عن نسبة الابوة والبنوة البشريتين الى الله والمسيح ، فاذا امتنع في ايماننا واعتقادهم ، أن يكون الله تعالى والداً ، والمسيح مولوداً كالآدميين ، ثبت بامتناع أحد النقيضين تحققُ الآخر ، وتعين أن يكون للمسيح أبٌ ، يفوق ادراكَ العقول ، ويُنزه عن الكيف والكم وعن لماذا ولِمَ . وإلاَّ فمن تُراه يكون اهلاً لابوة المسيح كلمة الله المتأنس ، الذي فتح عيني الاعمى وأقام المقعد ، وابرأ الاكمه والابرص ، وأحيا الموتى ، وأتى أنواع الخوارق ، غير الله عزَّ وجلَّ الذي تحدّثُ بعجيب قدرته الكائنات ، ويسبح بحمده ما في الارَضين والسماوات ؟

ثم ان « الكلمة وروح القدس » المذكورين في القرآن ، هما الاقنومان المتممان لخواص الثالوث عندنا ، لفظاً ومعنى ، فان قول الآية « وأيدناه

بروح القدس » قد شمل المؤيِّد ، والمؤيَّد ، والمؤيَّد به ، وكل منها اقنوم ممتاز بخاصته الذاتيـة ، ويبدو الفرق بينها للمتأمل في اسرع من لمح البصر . فان المتكلِّم هو غير الكلمة ، كما ان المؤيِّد ، وهو الله ، غيرُ المؤيَّد ، وهو الكلمة أو الابن ، والمؤيَّد ، غيرُ المؤيَّد به ، وهو روح القدس . وتلك أقانيم الثالوث عندنا لا خلاف فيها بيننا وبين المسلمين ، فنحن نقول في بشارة الملاك لمريم : ملاك الرب نزل من السماء وبشّر مريم العذراء ، فحبلت بروح القدس ، ونقول ايضاً : « الكلمة صار جسداً وحلّ فينا » [1] ، وفي الانجيل الطاهر : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » [2] ، الى غير ذلك ممّا تتجلى فيه عقيدتنا الراهنة ، البعيدة عن معنى الابوة المادية التي يتّهمنا بها المسلمون . وقد ابنّا في

(١) انجيل يوحنا ١ : ١٤

(٢) انجيل يوحنا ١ : ١

ما تقدم وجه ما أجاز لنا تسمية الله عزَّ وجلَّ بالآب ، وأوضحنا أنَّ قولنا الكلمة هو مرادف لقولنا ابن الله ، وأن الانجيل المقدس قد دعاه بالكلمة ايضاً ، ودلّ في كلمة التبشير على ولاده من روح القدس ، لا من المادة ، على حدّ ما شهد به القرآن واعتقده المسلمون انفسهم . فتعين اذاً أن لا يكون بيننا وبينهم الاَّ خلاف لفظي في تسمية الله بالآب ، وهي ابوّة اقتضتها بنوة المسيح في قول القرآن « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » ، ولا يصح أن يكون هذا الخلاف التافه سبباً في الجدال والمناوأة ، مع صحة هذه الابوة التي اعتقدها الوفُ الوف من اهل العلم وارباب النُهى ، ونمّت حقيقتها في أضعاف القرآن عينه ، على ما رأيت . فالله المسؤول أن يطوي من بيننا شقّة البين ، ويجمع قلوبنا على حبه وعبادته ، انه على كل شيء قدير

المحاضرة الثالثة

في رد مدعى بتهم النصارى بتحريف الانجيل

يدّعي فريق من اعداء الحقيقة أن الانجيل قد لعبت به ايدي المزوّرين ، وتخوّنت قيمته تارةً بالحذف ، وطوراً بالاضافة ، ولا بدّ لكل مدّعٍ من حجة ، يؤيد بها دعواه ، قُل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، ولا ريب في أنهم يعجزون عن اثبات دعواهم بالبرهان ، ودعوى المدّعي مجردةً عن كل بيّنة ، لا تكون مسندا للحكم

فاذا كانت هذه حالنا معهم ، وكان حظ دعواهم من الصحة قيامها بلا اسناد الى زمان أو مكان أو انسان ، فهم قد دلّوا على فسادها بالعجز عن اسنادها ، لأن التحريف صفة عارضة ، يستلزم اثباتُ طروئها

البينة ، للدلالة على اصل الانجيل ، وخروجه عن اصله بالتحريف ، وذلك مستحيل ، فلا يظفرون منه بشيء ، لأن الانجيل المتداوَل بين ايدينا ، لم يدخل فيه تغيير ولا تبديل ، وما زالت نسخه اليوم كالتي وُجدت في صدر النصرانية بلا فرق بينها ، كما يظهر من معارضتها بالنسخ القديمة ، لمن احبَّ الوقوف على الحقيقة

ولم يكن تحريفه مستطاعاً ، لانتشاره حينئذ بأيدي المؤمنين ، بلا فرق بين نسخة وأخرى ، فلو نُوي تحريفه ، لاقتضى جمعَ تلك النسخ كلها جمعاء ، ثم إبدالها بسواها ، وهذا لايتمّ بلا تواطوئهم قاطبةً عليه ، ولا يقع في شعوب مختلفين في اللغات ، متباينين في المذاهب والبيئات ، منتشرين في آفاق الارض ، وفي ايديهم الوفُ الوفٍ من نسخه ، لِما يستدعي من تفرق الكلمة وانفصامِ العروة ، بما يُحدث

من الشكوك ، فلو وقع لكان عثرة من العثرات الشؤمى ، ومفسدة للعقيدة ، لأن تغيير الكتب المقدسة ، بل ابدال كلمة منها باخرى ، مفض الى الشك فيها كلها ، لفساد الكل بفساد البعض ، ولأنَّ شرط الصحة فيها ، خلوصها جملةً من العيب ، كثيره وقليله ، على ما سبق القول في صدر هذا الكتاب ، ويستحيل أن يحصل حادث عظيم كهذا ، فيُغفله المؤرخون

وليس في حلقة من سلسلة التاريخ ايماء الى هذا التحريف ، الذي لابد لاتيانه من جرّ مَغنم ، أو دفع مَغرم ، فما يكون الغرض من تحريفه ، واهله طراً ما فتئوا في قيد من اوامره ونواهيه عمّا تصبو اليه اهواؤهم ؟ وعلى انقسامهم فِرَقاً في عُنُق النصرانية واليوم ، ما زالوا إلباً واحداً على المزوِّر والمحرّف ، ولم يضنّوا بالمُهَج في حفظه من الخزل

والزيادة ، وقد استُشهد منهم جمّ غفير ، في صيانة كلامه واستبقاء رونقه ونظامه

فلو وقع التحريف ، كما يزعُم بعض الناس ، للزم أن ينكّب بالمحرّفين عن طريق الله ، ويفكّهم من عُقَل الانجيل الثقيلة ، لِما فيه من مغالبة النزوات ، وظَلْف النفس عن الاهواء والشهوات ، وأن يكون وقوعه قبل ظهور الاسلام ، حين كثُر الشقاق في النصارى ، فقد كان تفرّقُهم يومئذٍ مذاهب وطوائف أوجبَ له ، على أن كثيرين منهم قد شقّوا العصا ، ولم يختلفوا في شيء منه ، وانما اختلفوا في تفسيره فقط ، وللزم ايضاً أن يتحاشى القرآن عن ذكره بالتجلة والتعظيم ، وأن لا يطوي كشحاً على هذه المعرّة ، ومن مصلحته كشفها ، للنزول به عن درجة الحرمة والجدارة بالثقة ، الى دركة الانتهاك والشك ، ترويجاً لدعوة الاسلام ، وليس في القرآن ما يدل على

هذا التحريف ، بل كل ما فيه ناطق بصحة الأنجيل ، موجب لزومه وتبجيله ، فقد جاء في سورة المائدة منه : « وآتيناهُ الانجيلَ فيهِ هُدًى ونورٌ ومُصدِّقاً لما بَينَ يدَيهِ منَ التّوراةِ وهُدًى وموعظةً للمُتّقينَ »[١] ، وفي سورة الحديد : « ثُمّ قفّينا على آثارِهمْ برُسُلنا وقفّينا بعيسَى بن مريَمَ وآتيناهُ الانجيلَ وجعَلْنا في قلُوبِ الذينَ اتّبعُوهُ رأفةً ورَحمةً »[٢]، وذكره في مواضع شتى بمثل هذه النعوت ، التي لا يوصف بها كتاب ، ازال التحريف بهجته ، وأوهى اسباب الركون اليه ، وفي سورة المائدة : « ولْيَحكُمْ اهلُ الانجيلِ بما أنزَلَ اللهُ فيهِ »[٣] ، وفي سورة يونس : « فانْ كُنتَ في شَكٍّ ممّا أنزَلنَا اليكَ فاسألِ الّذينَ

---

(١) ٤٩ (٢) ٢٧ (٣) ٥٠

يَقْرَأُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ » (١) ، فلو آنس فيه صاحب الشريعة الاسلامية أثر التحريف ، لما استصحّ أن يكون قسطاساً لأحكام النصارى ، ولا اوجب استفتاءهم فيه حال الشك والابهام ، اذ هم لا يؤدون جواباً إلاّ مسنداً اليه . وفي الحديث المرويّ في صحيح البخاري : « أُعطي اهلُ الانجيلِ الانجيلَ فعملوا به » (٢) ، فلو أُسلك فيه تحريف ، لكان النصارى قد حرّفوه ، ولم يعملوا به ، وهذا عكس ما افاد الحديث ، فانما معناه الاخذ فيه تواً على حد قوله في آية « انما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٣) ، اي بلا تريُّث ولا ابطاء ، واين هذه المسارعة الى اتباع الانجيل والعمل به ، من تهمة

---

(١) ٩٤

(٢) الجزء الثامن صفحة ٢١١

(٣) سورة يس ٨٢

التحريف التي لم تقم في غير مخيّلات المفتئتين ؟

أمّا ما سرى في افهام بعض المسلمين من حذف اسم محمد من الانجيل والتوراة ، فزعمٌ لا يثبته برهان ، ولا يقوم عليه دليل ، لخلوّهما منه ، فلو ورد ذكره في كليهما ، وحُذف من احدهما ، لظلّ الآخر شاهداً على التحريف ، او لو ورد في الكتابين ، ونُسخ منهما معاً ، لذهب النسخ بصحتهما ، واوهن ثقة الناس بهما ، لان خلوص الكتب المقدسة من عيب التحريف على الاطلاق شرطٌ في اعتقادها ، كما اسلفنا ، ولا بقاء لاحد على الايمان بها مع علمه بتحريفها ، فضلاً عن أن يكون هو المحرف ، اذ يخادع نفسه في هذه الحال ، باعتقاد صحة ما افسده بيده ، ولا يُحتمل وقوع ذلك من عاقل ، ولا يُتصوّر أن تتواطأ على حذفه امّتان ، على اختلافهما في الدين ، ويستمرّ الحذف مكتوماً ، ففي المثل : كل سرّ جاوز الاثنين شاع

ولا يُحتمل ايضاً أن يكون اليهود قد نزعوا اسمه من التوراة ، إن كان قد ورد فيها ، فهم على عداوتهم وبغضهم للمسيح ، لم يحذِفوا اسمه ، ولم ينكروا إلاّ صحة بعثته فقط ، لسبقِ ذكره في التوراة ونبوءات الانبياء ، فلو آذن كتاب بمجيء الشارع العربي وكان منتظراً ، اذاً لما امكن محو اسمه منه ، بل امكن أن يقال ، انه لم يأتِ بعد ، كما قال اليهود في المسيح

ثم ما يكون القصد من حذف اسمه وانكار نبوءته ، وهو لم يَبهَظ الناس بشريعة شاقة ، ولا حملهم على شدة ولا مَعيف ؟ بل اختصر ايام الصيام ، واباح فيها الوان الطعام ، حتى ليس فيها للنفس جهد ، ولا تعجيف عن شيء ، وبدّل الصلوات السبع الطويلات بخمس هيّنات ، واجاز الطلاق وتعدد الزوجات ، واحلّ انواع الطيبات ، واعلن أنه الشفيع المشفَّع يوم القيامة ، وليس في

شريعته إلاّ ما يروق ويشوق ويُقبل بذوي النُحت الضعيفة عليه ، فلو كانت نبوءته مع هذه المشوِّقات مثبتة في كتاب من الكتب المقدسة ، او بشيء من الخوارق، لجمعت بين طرفي السعادة في الدارين ، ولم يُلفَ فيها ما يبعث على النِفار منها والفزع الى شريعة المسيح ، وما فيها من الحض على الفقر والامساك عن شهوات النفس وملاذ الدنيا ، اعتياضاً للآخرة باعمال الصلاح والتقوى ، وهي صعبة المطلب خشنة المركب

على أن الناس ، وفيهم كل كريم العِرق طيب الارومة ، قد انضووا الى الدين المسيحي ، بلا تشويق ، ولا قهر ، ولا احتيال ولا سحر ، ولا مناسبة من المناسبات ، لان شريعة المسيح لم تكن سهلة فيكثرَ اقبال تبّاعها عليها ، ولا الرسل من اهل الثراء فيُغروا الناس بالانحياز الى منهبهم بالبذل والعطاء ، ولا من ذوي السطوة والصولة فيحملوا العالم

على الايمان بالانجيل قهراً ، ولا عهدَ لهم بالسحر او نحوه من ضروب الحيلة على بلوغ الاغراض البعيدة ، لانهم كانوا صيادي سمك ولم يفوزوا من العلم بكثير ولا قليل ، ولانَّ السحرة مخالفون لارادة الله في ما يبتغون من آرابهم بالطِلَّسْمات ونحوها ، لِما فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب او قوة شيطانية او غير ذلك ، مِمَّا لا يأتلف مع روح رسالتهم القائمة بالمدد الالهي والخاصة الرّبانية ، التي آتاهم المسيح لصنع المعجزات ، وفيها غنىً عن الالتجاء الى خصائص الكواكب وقوى الابالسة في جذب البشر الى عبادة الله ، وليس لهم من المناسبات ما يخفّض عنهم مشاق الدعوة ، وهم قد انفصلوا عن مَواطنهم وكلّ ناهضة لهم ، ليبشروا في اطراف الارض بالمسيح الاله الذي يستوحش العقل من كل ما عَرض له ، من اهانة وضرب ، وموت بعد صلب ، ولا يأنس اليه بلا

معجزة ، فينتيج من ذلك كله ، أن الرسل انما ظفروا ببغيتهم واستطاعوا التبشير بالانجيل والدعوة الى دين المسيح ، بقوة المسيح نفسه ، لا بنصير من قبيل ، ولا بظهير من إباحة محظور او عمل غير مشكور ، وتلك ولا شك معجزة ينتهي اليها العجب ، وتنقاد لها الامم طوعاً بلا سيوف ولا رماح

وقد حاول اعداء الدين المسيحي أن يُصيبوا مقتلاً من الانجيل ، وسلكوا الى التكذيب به كل سبيل ، فضلّ سعيهم ورُدُّوا على أعقابهم ، ذلك أن طائفة من فحول العلماء في القرن الخالي ، لما رأوا تطاوُل اعداء الدين المسيحي على الانجيل ، وما يتّهموننا به من تحريفه ، صرفوا هممهم الى جمع نسخه القديمة المنشورة في العالم ، وراحوا يطلبونها من مظانّها في كل صقع ، لافحام الخصوم بالحجة الراجحة من تلك النسخ ، فادّاهم التطواف الى هذه الاقطار ، وتفرقوا فيها

ينشدون ضالّتهم ، بين مصر والشام وغيرهما من البلدان ، فتسنى لهم أن يجمعوا منه نسخاً ، يرجع تاريخها الى صدر النصرانية ، وفي جملتها النسخة المعروفة بالسينائية ، فعكفوا على معارضتها واحدة بواحدة ، يتتبعون اقدم التراجم عند السريان والعرب والارمن والقبط والحبشة وسواهم من الامم ، ويبالغون في نخلها ومحصها ، شأن شحيح ضاع في التّرب خاتمه ، فلم يعثروا بينها على فرق يستنزل الكتاب من مقامه ، وجاءت تلك النسخ ثبتاً على صحة الانجيل ، ففاء بفضل اولئك العلماء كثيرون من اعداء الدين الى محجة الحق ، بعد أن تجشموا عرق القربة في افساد كتاب الله

هذا وقد أثرَت الكنيسة بعدد وافر من اعلام العلم ومصابيح الهدى ، فملأوا قماطرها بالرسائل والمصنفات ، واستظهروا على إثبات اقوالهم بشذور

النقول من صحف الوحي ، فلا تكاد تجد آية من آيات الانجيل إلاّ ذكرتها تلك المصنفات ، حتى لو فُقد برّمته ولم يوجد في العالم بأسره من يرويه صحيحاً ، لامكن جمعه منها بلا زيادة ولا نقصان

المحاضرة الرابعة

توطئة

في ايمان النصارى بيسوع المسيح

إنّا معشر النصارى نؤمن بان كلمة الله قد انحدر من السماء ، وتجسد بروح القدس من مريم العذراء ، وصُلب فِدى البشر وتألم ومات ، ثم انبعث من القبر وصعد الى السماء ، ولسوف يهبط الارض في منتهى الدهور ليدين العالم ، وهو الثاني من الاقانيم الالهية الثلاثة ، الغير القابل للانفعالات والآلام بذاته ، بل باتحاده بالناسوت القابل لها

— ١ —

في اتحاد الكلمة بالطبيعة البشرية

الاتحاد ، في عُرف اهل العلم ، عبارة عن شَفع او ما فوقه من الاشياء ، يتألف وِتراً . وهو انواع متباينة بحدود وضوابط منصوص عليها في مظانها ، وليس منها ما يدخل في هذا البحث ، سوى الاتحاد الحقيقي الجوهري الاقنومي ، الذي هو مركز دائرة الكلام ، وهذا الاتحاد الحقيقي ، هو اقتران طبيعة تامة محدودة ، بطبيعة كاملة غير متناهية ، تقوم لكمالها وعدم تناهيها ، مقامَ الطبيعة التامة المحدودة المقترنة بها ، كما اتحدت الطبيعة الانسانية المتخَذة من مريم البتول بالطبيعة الالهية ، بواسطة اقنوم الكلمة ، وبتخلّي الانسانية عن وجودها ،

وقيامها بالاتحاد بالكلمة الازلي الغير المتناهي . ففي يسوع المسيح اقنوم الهي واحد ، بطبيعتين الهية وانسانية ، تراوحت بينهما اعماله ، فما كان منها انسانياً ، كالأكل والشرب والاعمال الناصبة ، فبالطبيعة الانسانية ، وما كان الهياً ، كالخوارق والمعجزات ، فبالطبيعة الالهية ، على حد ما يأتي الانسان من الروحانيات ، كالفكر والارادة ، ومن الماديات ، كالأكل والشرب ، يتم منها شيء في نفسه ، وشيء في جسده ، وكلها ناتج من اتحاد الروح بالمادة ، ومعزوٌّ الى شخصه المفرد .

— ٢ —

في الفرق بين الطبيعة الفردية ووجودها ، وثبوت
امكان تخليها عنه ، ورد من زعم عكس ذلك ،
وحسب الاتحاد مستحيلا

نقول ان الطبيعة الفردية تمتاز من وجودها ، بانها كامنة مستقرة في التصور ، فاذا برزت من القوة الى حيز الفعل ، كان هذا البروز وجودها المميّز لها من حالتها في ما قبله ، وتصير بعده الى الانفصال عنه ، وإلاّ لزم أن تكون ضرورية ، فيلازمها الوجود ، ومن ثمّ تكون ازلية ابدية ، وما هي بالازلية ، لانها لم تكن في كل زمان ، ولا هي بالابدية ، لانها صائرة الى الزوال بالموت بعد وجودها ، على أن وجود الطبائع الفردية جمعاء غير

ضروري ، ولا يستحيل اعدامها بدءً ، واعتبرْ ذلك في الانسانْ ، فلو كان وجوده ضرورياً ، لوُجد منذ الازل ، ولم يأتِ عليه الموت ، او لو كان وجوده من مقتضى طبيعته ، وغير ممتاز منها ، لاستحال الفصل بينهما ، لامتناع فصل الشيء عن ذاته ، فالطبيعة الفردية اذاً ممتازة من وجودها ، امتيازاً يثبته الحسّ والقياس ، فلا يصح انكاره لقصور الافهام عنه

ومن الواضح وضوح الشمس في رائعة النهار ، أنّ افراد الناس متفقون في الطبيعة الانسانية ، مختلفون في الوجود ، ولا يصح أن يكون المتفَق والمختلَف فيه واحداً ، كالانسان ، فهو قبل الخلق واحد للنوع الانساني ، فاذا ظهر الى الوجود ، كان لكل فرد من افراده ، سحنة خاصة وسمة يمتاز بها من اقرانه

وكل شيئين من طبيعة واحدة ، يتجانسان في الماهية ، ويتباينان في الوجود ، كالجلد منه دفّتا الكتاب وصفحتا الطبل ، وهو في الشكلين من طبيعة واحدة

ومعلوم في بَداتهِ العقول أن الطبائع الفردية تمتاز من وجودها ، بالفرق الواضح بين الموجود ووجوده ، فلك أن تقول انك موجود ، وليس لك أن تقول انك الوجود

واذا صحّ هذا الامتياز ، صحّ أن تتخلى تلك الطبيعة الانسانية المتخذة من مريم البتول عن وجودها ، وتقوم باقنوم الكلمة الالهي متحدة به

— ٣ —

في رد من زعم اتحاد القديم الازلي بالمحدث
الزمني أمراً مستحيلا

نقول ان استحالة الاتحاد ثلاثة انواع : فامّا أن تقع من جانب المتّحِد ، وإمّا من جانب المتّحَد به ، وإمّا من الاتحاد عينه ، ولا سبيل في ذلك كله الى استحالة الاتحاد . فان الله المتّحِد جلّت قدرته ، لا يعتاص عليه لكماله وعدم تناهيه أن يكمّل ويحُدّ بالوجود كل طبيعة من الطبائع الفردية . والطبيعة البشرية التي اتحد بها اقنوم الكلمة ، مستطاع تخليها عن وجودها ، لانها ممتازة منه ، كما اوضحنا ، وممكن قيامُها بوجوده تقدس اسمه . ولا تتأتى الاستحالة من الاتحاد عينه ، لانه

لا يستوجب توحيـد طبيعتين بالامتزاج كالسوائل ،
بل بالاقتران مع الخلوص والسلامة بقدرة الله ،
فالاتحادُ اذاً ليس بالامر المستحيل

وهو اعظمُ مِنحة وصلَ الله بها خلقه ، فلو
خرجت عن طاقته ، للزم أن يكون جلّت قدرته
عاجزاً عن اعظم حباء ، واجزل عطاء ، والله سبحانهُ
لا يخرُج عن قيد مشيئته شيء من الاشياء

واذ ثبت أن الاتحاد اعظم مِنحة وصل الله بها
خلقه ، فلو ضنّ به على استطاعته ، لكان ذلك من
المُسكة والبخل ، لا من الجود واللطف ، والله
عمّت نعمه وآلاؤه ، يُنزَّه عن مِثل هذه المضنّة ،
فالاتحادُ ولاشك واقع ولم يكن قط بالمستحيل

—٤—

في رد من زعم اتحاد الاقانيم الثلاثة معاً بالطبيعة
البشرية واجباً لا منتدح عنه ، لانها كلها من
جوهر واحد غير متفارقة ، وآنس في قصر الاتحاد
على الاقنوم الثاني استحالته على الاطلاق

لم يقُل المتكلمون من النصارى باستحالة الاتحاد على الاقنومين الاول والثالث ، وإن كان مقصوراً على الاقنوم الثاني ، بل قالوا انه أولى واليق به ، لثبوت كونه كلمةَ الله اي ابنه ، ولانّ الابن أولى بالبنوة من الآب وروح القدس ، اذ هي خاصته الملازمة والمميِّزة له قبل التجسد وبعده ، فلا تتحوّل بالاتحاد ، كما لو كان المتحدُ الآبَ ، فان خاصة الابوة تتحول بالتجسد الى بنوة ، وهكذا روحُ

القدس ، فاتحادُ الثالوث كله معاً بالطبيعة البشرية ،
لم يكن اذاً بالواجب الذي لا مُنتدح عنه ، وإن كان
مستطاعاً

— ٥ —

في ابطال قول من قال : ان كان اقنوم الكلمة قد اتحد دون الاقنومين الآخرين ، فقد تغير وفسد جوهر الثالوث الالهي ، اذ لا يتصور انفصال أحد الاقانيم واتحاده بالطبيعة البشرية ، دون تغير جوهر الثالوث وفساده بأجمعه

نقول ان التغير والفساد ، كلاهما من الصفات العارضة للاشياء ، بعد خروجها من القوة الى الفعل ، وتقمصها المادةَ القابلة للتحول والفساد بالموت والزوال ، والجوهرُ الالهي فِعلٌ محض ، منزّه عن هذه الاعراض

والكلمة حين اتّحد بالطبيعة البشرية ، لم ينفصل عن جوهر الثالوث الالهي الازلي ، فيطرأ التغير

والفساد على هذا الجوهر ، وانما هو كالشمس المؤلفة من قرص وشعاع وحرارة ، تسري حرارتها في الاجسام ، ولا تنفصل عن جوهرها ، ولا يتطرق اليه تغير ولا فساد

او كالنار ، تنتقل حرارتها الى الماء ، ولا ينفصل عنها شيء من خواصها فيتغير جوهرها ويفسد ، بل يظلّ كلّ من اللهب والحرارة والنور كاملاً فيها

او كالعالِم ، يتنسّم المتعلمون علمه ، فيتحد بهم ، ويصبحون علماء مِثله ، ولا ينقلب جاهلاً

او كالكلمة ، تتحد بالقرطاس كتابةً ، ولا تفارق نفس الكاتب ، الى غير ذلك من التشابيه والامثال

—٦—

في تفنيد من قال : لو اتحد الله بالطبيعة البشرية ، لوجب ان يتكيف بحد ، ولما كان سبحانه غير محدود ، امتنع اتحاده

ان هـذا القول هو حدّ الهيولى التي تتكيّف بقبول صورةٍ ما ، بعد خروجها من القوة الى الفعل ولا يشمُل الله تعالى ، لانه ليس بالمادة ، ولا بصورتها ، ولم يكن قط في القوة قابلاً لصور شتى كالجواهر المجردة ، فيقتضي خروُجـه من القوة الى الوجود أن يتكيف بحد وشكل ، وأنما هو الفعل المحض القائم بذاته ، الذي وجودُه عينُ ماهيته ، وهو منزّه عن الـكيف والـكم

— ٧ —

في رد من زعم تجسد الكلمة غير ضروري لخلاص النوع البشري ، ومستغنى عنه بما لله عز وجل من الوسائل الكثيرة الى ذلك

لم يكن تجسد الكلمة لانقاذ البشر ضرورياً ، ولا يُتصوَّر ذلك مع القدرة الالهية الفائقة الطبيعة ، غير انَّ من الوسائل ما لا بدَّ منه لبلوغ الغاية ، كركوب الفُلك في التخطي من عُدوة نهر الى العدوة الاخرى ، ومنها ما هو ضروري ، لكن الى حد ومن الممكن أن يُلجأ الى غيره ، تبعاً للمصلحة والاوفقية ، كالمراكب البخارية في هذه الايام مثلاً ، فانها للمسافر براً على كثرة الوسائل ، اسرعُ ما يُدنيه من وجهته ، وافضلِ ما يُبلغه الى طِيَّته ، ومن هذا

القبيل ضرورة التجسد الالهي ، فان الله ، على وفرة ما له من الذرائع الى فِداء النوع البشري ، وانقاذه من الهلاك الذي نتج من الخطيئة ومعصية امره الالهي ، قد شاء سبحانه أن يكون الفداء باعزّ ما لديه ، لِما فيه من القوة على تحقيق الغرض وبلوغه سريعاً ، بفضل الواسطة التي هي اشد تأثيراً في ذلك من كل ما سواها ، فان التجسد الالهي لَهو خير فداء للبشر ، واقوى ما يحمل على حبّ الخالق ، ويبعث على إعظام صنيعته ، والايمان به ، واجتناب الشر والمسارعة في الخير ، الى غير ذلك من الفضائل ، التي لا يُتسبب اليها بذريعة افضلَ من التجسد الالهي ، الذي أذِن الله فيه ليكون طريق الخلاص الامين

— ٨ —

في رد من قال : لو كان تجسد الكلمة ضرورياً
لتخليص النوع البشري ، لتم منذ البدء

نقول انما حصل التجسد بعد وقوع الخطيئة تكفيراً عنها ، ولا يكون التكفير إلاّ مسبوقاً بالاثم الذي اقتضاه ، فلو تجسد الكلمة منذ البدء ، لكان التجسد جزماً ، وجاء مجيء الدواء قبل وقوع الداء ، ولا يُحتمل حصول هذا من قِبَل الله ، الذي وسع علمه الاشياء قبل وجودها كما لا يُتصوّر ايضاً وقوع التجسد تواً بعد الخطيئة ، لوجوب الفصل بينهما بنفس من الوقت ، يتسنى فيه للخطأة التأملُ والاعتبار بالمصير من حال النعمة الى الخطيئة ، والشعورُ بالافتقار الى رحمة الله والفزع اليه

—٩—

في ابطال زعم من قال : لو كان الكلمة قد تجسد
لمحو الخطايا لوجب أن تمحى كلها

لا شبهة في أن الغرض الاول من تجسد الكلمة انما هو استئصالُ الخطيئة الاصلية ، وتطهيرُ الانسان من رجس ما لحقه منها بعصيان أبويه الاولين ، ثم محوُ الخطايا الفعلية ، ووضعُ حدٍّ لِما كان يُخشى وقوعه من الخطايا في مُستأنف الزمان ، بايضاح الذرائع العاصمة منها ، ونهج الطريق السوي الى الخلاص

وقد جاء السيد تقدس اسمه ، فأتمّ ذلك بسر الفداء العجيب ، وهدى الناس الى سُبل الفضيلة والصلاح ، وعلّمهم اتّقاء الشر واجتناب الاثم

ومواطن الريبة ، وحضّ على المخالقة والمسامحة والمياسرة والتحاب والترافد والرفق والحياء وسائر الآداب والمروءات ، مما يجب أن يُستأصل به الاثم ، وينتفي القلق والشغب ، وتتوطد دعائم السلم ، وتستحكم الواشجة بين افراد الاسرة البشرية ، فان عاد الناس الى اجتراح الخطايا ، فالذنب ذنبهم ، لانهم آنسوا النور وعشوا عنه مؤثرين الظلمة بارادتهم ، ولم يكن من العدل المنعُ من ركوب المعاصي بسوى النصح والموعظة ، لأن منعها بالقوة ، ذاهب بالحرية الشخصية المستوجبة للجزاء ، فان الانسان لا ينال ثواباً ولا يلحَقه عقاب ، إلاّ اذا أتى اعماله مختاراً طليقاً من كل قيد سوى العقل ، الفارق بين الحق والباطل ، فيستحق من ثَمّ الاجر او ضده ساعياً اليهما بالارادة التامة ومطلق الاختيار ، فمَن أحسن فلنفسه ومَن أساء فعليها

— ١٠ —

في تزييف زعم من قال : ان اتحاد الكلمة بالطبيعة البشرية ، يستلزم اتحاد الله بسائر الانبياء ، اذ لا فرق بين واحد منهم وآخر

المراد بالاتحاد اجتماع الطبيعتين الالهية والانسانية المتخذة من مريم البتول في كلمة الله المتأنس ، بتخلي الانسانية عن وجودها ، وقيامها بوجود الكلمة الازلي الغير المتناهي ، قياماً لم تفارقه فيه الالوهة ، ولا عزبت عنه البنوّة كما مرّ

وليس الاتحاد بالانبياء هكذا ، وانما هو اسباغ النعمة الالهية عليهم واتحادها بهم ، فهم بشر متحدون بنعمة الله ، لا بأقنومه جلّ جلاله ، كما هي الحال في اتحاد الكلمة بالطبيعة الانسانية ، ولا وجه للقول

بحصول اتحاده تعالى بالانبياء ، وكلّهم من نسل البشر ، وليس لاحد منهم ما للمسيح من المعجزات ، التي شهدت له الكتب المقدسة ونبؤات الانبياء ، وليس بينهم مَن لم يكن نتيجة اجتماع الابوين ، [1] او من لم يعرف الخطيئة قط كالمسيح ، [2] ولا من علّم تعاليمه السامية ، وانبعث من الموت وارتفع الى

---

(١) فان اعترض بأن آدم خلق من غير جماع فذلك لانه أُوجد من العدم كسائر العجماوات الاولى يوم لا ذكر ولا انثى على الأرض . وليس كذلك مولد المسيح من عذراء مولداً وحيداً في تاريخ الخليقة .

(٢) ان كل من كتب في سير الانبياء من شراح القرآن والمحدثين قد احصى لهم هفواتهم ولم يعز سقطة البتة للمسيح . طالع كتاب تعليم العلماء في عصمة الانبياء المطبوع بالمطبعة الامريكانية بمصر سنة ١٩١٨

السماء ، [١] وكلّ ذلك من مميّزاته وآيات الوهته ، لا يضاهيه فيه نبيّ ولا رسول ، على ما سنبيّنه بالاسهاب في موضعه

ذلك فضلاً عن أن تسميته بكلمة الله ، يُتنشّى منها رائحة الاتحاد ، والمسلمون انما يدعونه بهذا الاسم ، تفادياً من وقوع الريب في مولده الطاهر ، على أن قولهم : انه كلمة الله القاها الى مريم ، [٢] وقول

---

(١) اما قول المسلمين بارتفاع ادريس او اخنوخ الى السماء فليس في أسفار العهدين ما يدل عليه وانما جاء فيها ان الله قد نقله من الارض لكي لا يرى الموت . سفر التكوين ٥ : ١٨ و ٢٢ و ٢٤ وابن سيراخ ٤٤ : ١٦ ورسالة بولس الرسول الى العبرانيين ١١ : ٥ . ولم يزد القرآن على قوله فيه : « ورفعناه مكاناً عليا » سورة مريم ٥٧ . على أنه قد صرح بارتفاع المسيح الى السماء اذ قال : « يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي » سورة آل عمران ٥٥

(٢) « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم » سورة النساء ١٧٠

النصارى : انه كلمته وابنه ، على ما شرحنا سابقاً ، سيّان ، فان في كلا القولين معنى الاتحاد ، الذي لا يعلو له استحقاق الانبياء ، ولا يضارعون فيه كلمة الله وابنه ، وإن جلّوا

واذا كان هذا مبلغ التفاوت بينه وبينهم ، فهو حريٌّ بان يمتاز عنهم ايضاً بالاتحاد ، كما هو في الحقيقة ممتاز عنهم بصفاته وتأييد دعوته ، بقدرة الله الذي لا يظاهر الكاذب ، ولا يؤيد دعوته ، فالمسيح كلمة الله المتأنس ، قال في انجيله الطاهر : انه ابن الله جاء الى العالم محتملاً الآلام المبرّحة ، والصلب على خشبة العار ، لانتياش البشر من مخالب الهلكة ، قياماً بدعوة ابيه ، وقد جاءت تعاليمه وماجريات حياته ، في نسق من بديع التحقيق لسابق كلماته ، بعجيب صنعه وآياته ، وأيّد كلامه بأن انبعث بعد الموت ، وارتفع الى السماء ، الى غير ذلك من العجائب

والمعجزات ، فصحّ أنه ابن الله الوحيد المتأنس بالاتحاد ، ولم يكن لاحدٍ غيره هذه الصفة ، وما سوى ذلك من الاعتقاد ، بدعة وإلحاد ، والله يهدي من يشاء

— ١١ —

في تفنيد من قال : ان كلمة الله اي نطقه الذي حل بمريم عند الاتحاد مخلوق ، وان المسيح ليس بابن الله

لقد بيّنا في ما تقدم ، أن الله تعالى ناطق ، وأن وجود نطقه فيه ، منه لا من غيره ، لانه علة الكل ، بل هو فيه ازلي بازلية ذاته ، فالقول اذاً بأن نطق الله مخلوق خطأ محض

على أن النطق من الاسماء المشتركة المعاني ، تتناول أقسام الكلام جميعها ، وما استقر في النفس من قوة النطق ، يتصرف به العقل في اغراضه ، وتلك القوة هي التي حلّت بمريم ، لا الصوت الخارج من الحلق بمقاطع الالفاظ للتعبير عن المعاني ، كما يفسره

المحاجّون اخذاً بظاهر لفظه ، فمتى ادركنا من معنى النطق هذه الحقيقة ، علمنا أن وجوده في ذات الله ازلي بازليته دائم بدوامه ، وامتنعَ أن يكون مخلوقاً ، وهو عزّ كماله علةُ العلل وباريء النَسَم ، وانتفى أن يكون تعالى قد خلقه لنفسه ، بانتفاء كونه ، وهو المبدع الكامل ، ناقصاً ومحتاجاً الى الكمال بالنطق ، الذي هو مخلوقه ، اخذاً بمبدإ « كفاية العلة لاحداث المعلول » ، لانّ النطق هبة الله للنفس ، ولا يهَب الشيء مَن لا يملكه ، فنطقُ الله اذاً هو كلمته وابنه الازلي الذي حلّ بمريم ، وهو خالق لا مخلوق

جاء في القرآن : ان المسيحَ كلمةُ الله وروحٌ منه .[1] فهل كان الله قبل الخليقة ذا روح وكلمة أم لا ؟ فان قيل : كان له روح وكلمة ، قلنا : أهما هو

(١) قد اثبتنا نص الآية في الحاشية السابقة

أم غيره ؟ فان قيل : هما هو ، فالمسلمون يصفون المسيح بكلمة الله وروحٍ منه ، والروحُ والكلمة كلاهما الله ، فالمسيحُ اذاً هو إله . وإن قيل : هما غيرُه ، فمعه اذاً اثنان ، ومَن كان معه اثنان ، فهو غيرُ منفرد ولا متوحِد . وإن قيل : ان الروح والكلمة من خلق الله ، فمن الغريب وصفُهم بالحي الناطق ، مَن لا روح له ولا كلمة ، ولكنَّهم لم يصفوه عزَّ وجلَّ بهذا الوصف ، إلاَّ لانهم قد استدلوا على الحياة والنطق فيه ، بالروح والكلمة ، اذ الروح هي جوهر الحيّ ، والكلمة كُنه الناطق

وإن قال بعضهم : انه سُمي بكلمة الله ، لانه خُلق بامره ، قلنا : لو كان الحال هكذا ، لكان لا فرق بينه وبين سائر المبروءات التي خُلقت بامره ،

وللزم أن يُطلَق لفظ الكلمة عليها كلها ، لأنها خُلقت قاطبةً بامر الله ، وليس ذلك في شيء من الصواب ، ولا كلّ مخلوق يدعى بكلمة الله ، وإلاّ لم يقُم لوصفه في القرآن بكلمة الله معنى ، يمتاز به عن الخلق الذين وُجدوا بكلمته تعالى

— ١٢ —

في شهادات القرآن للنصارى بألوهة المسيح
واتحاد الكلمة بالطبيعة الانسانية

لقد انكر علينا المسلمون اعتقادنا بالاتحاد الاقنومي الالهي بالطبيعة الانسانية ، كما انكروا علينا اعتقادنا بالتثليث و الوهة المسيح ، الى غير ذلك من صحيح العقائد ، واعتسفوا عن سَنن الحقيقة ، وخبطوا في تفسير كلامنا خبط عشواء ، وتصرفوا في تأويله كما شاءت اهواؤهم ، واخذوا بصِيَغ الكلام الظاهرة ، وليس لشيء مما نسبوا الينا من البِدَع ظلٌّ الحقيقة ، وأنما هم يتسببون به الى الجفاء ، كأنّ الغرض من ذلك أن لا يتمّ لنا اتفاق معهم على شيء ، ولو كانت الحقيقة ضالة المؤمن ، وبئس الغرض ما يتوخّون ،

وساء ما يفعلون ، وبذلك يشذّون عن قواعد ايمانهم ونصوص قرآنهم

فمن اغرب ما وقفنا عليه ، اعتراضهم علينا في ما قاله القرآن عينه في اتحاد الكلمة : « انّما المسيحُ عِيسَى بنُ مَريَمَ رَسُولُ اللهِ وَكلِمَتُهُ القاها الى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ »[1] ، فهم على ما في الآية من التصريح بالاتحاد يُنكرونه ، ويرون الالقاء شيئاً غيره ، ولا فرق عندنا وعند كل عاقل بين أن يقال « القاها الى مريم » كما يقول المسلمون ، وأن يقال « احلّها فيها » كما يقول النصارى ، فان في اللفظتين معنى الاتحاد ، فضلاً عن أن معنى « الكلمة » هو النطق ، دُعي به « المسيح » نسبةً الى كونه نطق الله كما اسلفنا ، وعليه فليس المراد بالكلمة ، اللفظ الخارج من الحلق بمقاطع الصوت ، ولا الامر ، كما

(١) سورة النساء ١٧٠

يفسره المسلمون « فانما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ، وإلاَّ ما امتاز تبارك اسمه بالفرق اللائق بالوهته عن سائر المخلوقين بأمر الله ، ولو افادت الكلمة معنى الامر ، للزم أن تُدعى البروءات ، ولاسيما آدم بكلمةِ الله ، لانها خُلقت بامره على حدٍّ سواء ، وليس ذلك من الحقيقة في شيء ، فان القرآن عينه قد اختصه بهذا الاسم ، وليس اختصاصه به دون غيره بلا قصد ، كما تقدّم ، لان لفظ الامر كان بين شفتي الشارع ، وفي وسعه استعماله بلا مانع ، ويؤيد ايضاً قولنا ان معنى الكلمة ، النطق ، لا الامر ، قولُ الآية نفسها « وروح منه » ، فان معناه ، على ما نفهم ويفهم كل عاقل منصف ، أن الكلمة التي القاها تعالى الى مريم ، هي إله من ذات الله وجوهره ، اذ لا يكون من روحه إلاّ اذا كان من ذاته وجوهره ، فهو اذاً إله

من إله ، وإلاً لزمهُ أن يستتبّ أباً كسائر ابناء الآدميين ، والخالقُ سبحانهُ يُنزّه عن صفات المخلوق كما رأيت

وقد دلّ القرآن بهذه الآية على الاتحاد ، كما دلّ في غيرها من الاقوال على التثليث ، على ما اوردناه في موضعه ، وذكر في اعظام الوهة المسيح ، ما لم تذكره كتب المستقيمي الرأي من النصارى ، ذلك بأن اقرّ له بالمقدرة على الخلق والابداع ، بقول الآية : « وَاِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِينِ كَهَيْئَةِ الطَيْرِ باذْني فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً »[1] ، والله سبحانه قد استأثر بهذا السلطان ، فلا يأذن فيه لغيره ، فقول القرآن ان المسيح كان يخلق من الطين طيراً اقرار بالوهته ، وإن ثبتت بغير هذه المعجزة ونحوها ، من فضول المعجزات التي سبق الى

---

(١) سورة المائدة ١١٣

القول بها فريق من النصارى في عُنُق النصرانية وما هي إلاّ من مزيدات الاناجيل الموضوعة

وما بنا من حاجة الى الانتزاع بهذه الآية اثباتاً لألوهة المسيح ، وانما اتخذناها سبيلاً من اقرب السبل ، الى الاقطاع بحجة من صريح الكلام الوارد في القرآن ، ايقاناً منا بان التفسير الحرفي الذي قام عليه وحده اعتراض المسلمين ، في ما يزيّفون من اعتقادنا ، هو الحجة الراجحة التي لا يقوَون على دفعها ، وإلاّ ففي قول الحديث : « لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابنُ مريم حكَماً مُقسطاً »[1] ما يدلّ على أنه الاله الذي له وحدَه ، القدرة والسلطان على مناقشة الحساب ، والحكَمُ المقسط القاضي بالثواب والعقاب

واذا قال قائل : ان ما استندنا اليه من آيات

---

(١) صحيح البخاري . الجزء الثالث صفحة ١٠٧

القرآن في ثبوت الوهة المسيح ، منسوخ بالآية الواردة في سورة المائدة : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ »[1] ، قلنا ليس في ذلك وجه يؤول الى خلاف بيننا ، اذ نحن ايضاً نقول هذا القول ، ولا نعتقد أن الله هو المسيح ، بل نعتقد أن المسيح إله ، والفرق بين القولين ظاهر ، فان القول الاول ، يقتضي أن تكون اقانيم الثالوث الالهي كلها المسيح ، وما هو منها إلاّ الاقنوم الثاني فقط ، والقول الثاني ، يستفاد منه أن المسيح إله ، وهو هو بلا امتراء ، اذ لا يقتضي كونه الهاً تغيُّرَ شيء من صفته ، لانه احد اقانيم الثالوث الالهي ، الذي لم تفارقه صفته الذاتية بالاتّحاد ، كما اسلفنا ، ذلك على حد قولك : ان زيداً انسان ، فانه صواب ، اذ لا يقتضي كونُه انساناً تغيُّرَ صفته

(١) ١٩

الشخصية ، بخلاف قولك : ان الانسان زيد ، فانه قضية فاسدة لا تصح بالقياس ، لاقتضائها أن يكون كل انسان زيداً ، وفي ذلك من الخطا المنطقيّ ما لا يخفى على اهل النقد والبصائر النافذة ، لامتناع أن يكون كل الناس واحداً ، على اختلافهم في الشخصيات وتباينهم في الصفات ، فنحن نبرَأ الى الله من هذه البدعة ، وننكر أن تكون الآية « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح » ناسخةً لِما اتينا به من الآيات برهاناً على الوهته ، اذ لا يُحتمل وقوع النسخ في القرآن ، على ما ذكرنا في صدر هذا الكتاب

المحاضرة الخامسة

في تهيئة العالم لقبول المسيح والدخول في دينه [١]

لقد شاء الله جلّ جلاله ، أن يهيّئ العالم لمجيء المسيح وهُدى البشر بنور الانجيل ، فانزل ابنه الى الارض « في ملء الازمنة » [٢] على ما نصّ الكتاب المقدس ، ومعنى ذلك ، أن الله كان قد اعد العالم لتأسيس الدين المسيحي وانتشاره ، بتدابير فائقة لا تسمو اليها افهام الناس ، ولا تحيط بها عقولهم القاصرة ، بيدَ انها ، وإن تضاءلت عن ادراكها واحداً واحداً ، تستطيع الترقي الى فهمها جملةً ،

---

(١) Dr . Funk : Histoire de l'Eglise, T. I. ch .I. 6

(٢) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ٤ : ٤ ورسالته الى اهل افسس ١ : ١٠

استدلالاً عليها بما تجلى منها في حوادث التاريخ

كان الشعب الاسرائيلي قد امتاز عن شعوب الارض ، بما هداه الله تعالى به من اقوال الانبياء وتعاليمهم ، ثمّ ضلّ غيرَ مرة ، وعشي عنها مائلاً الى الوثنية ، بمخالطة الامم وتأثير الجوار السيّء في ما حوله ، فبلاه الله بالضربات يردّه الى حظيرته كلّما بَعُدَ عنها ، فلم يكن يثبت على الايمان طويلاً ، ولكنه استمرّ في حالتي جحوده وايمانه على الاعتقاد بالله ، يستشفُّ صورة المخلص من وراء حُجب المستقبل ، حتى ظهر يوحنا المعمدان آخر النبيين واعظمهم وبشّر بمجيئه . وكان ذِكرُ النبؤات ، وما شهد اليهود من عناية الله بهم ، وشاءَهُ لهم من الخلاص ، لا يزال حياً فيهم ، فقوّى ذلك رجاءهم ، وامدّهم بالصبر على انتظاره ، بشوق ظلّ ينمو على تناسخ القرون ، وذوو الكلمة فيهم يستفيدون من

ذلك الانتظار ، ويصرّفونه في ما ارادوا من اغراضهم واطماعهم ويُغرونهم بالانتصار على جيوش الرومان ، والفوز بالاستقلال السياسي قبلةِ امانيهم ، فباتوا عطاشاً الى مجيء المسيح ، ينوطون به وحدَه املهم ، ويعلّقون عليه تحقيق احلامهم

وكان الذين تخطوا منهم حدود فلسطين منذ زمن بعيد ، قد انتشروا في اطراف البلاد المجاورة لها ، وسامهم الاشوريون والبابليون الخسف ، وفتّوا في سواعدهم ، فلما طلعت شمس الانجيل على العالم ، كانوا قد تفرقوا حزائقَ في آفاق الامصار الرومانية ، وسرَتْ تعاليم البيئة الوثنية التي اكتنفتهم في جماعة منهم ، كفيلون الاسكندري وغيره ، فتلقّوا من العلوم المعروفة في ذلك العهد ، ولا سيما من الفلسفة الافلاطونية ، اشياء كثيرة ذيّلوا بها مصاحف الوحي ، غير انهم كانوا ايضاً ذوي تأثير في البيئة

الوثنية ، فبثوا تعاليمهم فيها ، كما سرَتْ تعاليمها فيهم ، واستمالوا اليهم فريقاً من الوثنيين ، ككفر بالاصنام وصبأ الى دينهم ، فجاء انحيازه الى اليهودية خطوةً الى النصرانيـة ، تهيأ لهـا منه في مُستأنف الزمان جنود وابطال انجاد ، اروَت تعاليمُـها السامية نفوسهم الظمأى الى فضائلها ومبادئهـا المستقيمة ، بما قوّمت فيهم من معوّج الاعتقادات اليهودية .

على أن تنصّر الوثنيين لم يكن لاختـلاطهم باليهود فقط ، بل ساعد عليه ايضاً سبقُ استعدادهم له ، بنتيجة سقوط تعاليمهم حين حاولوا في عنفوانهم تمويه اضاليلهـا بشيء من طِلاء الحقيقة ، فانكرها حكماؤهم ذوو القدم الراسخة في الفلسفة ، ولقد كان في وسع الفلاسفة ، اضعافُ الوثنية واقامة الفلسفة مقامها بين القوم الاذكياء ، ولـكنّ الخلاف كان يومئذ مستفحلاً بينهم ، فلم يظفَر جهابذة العلم من

مثل افلاطون وارسطو واتباعهما ، على سموّ مداركهم ، بكبت زينون القائل بالقدر وسلطته على العالم ، وابيقور الذاهب الى أن السعادة في اللذة ، وبقي فريق من طلاّب الحقيقة ، غير منتسب الى حزب من احزاب الفلاسفة ، يجدّ في استجلاء الحقيقة الغامضة ، فلما استغلقت عليه ، رجع الى القول باللاأدرية . وكان من امر الفنون الجميلة ما كان من امر الفلسفة

وتطرّق الوهن في تلك الحقبة الى الجمهوريات اليونانية ، وذهب الهرَم برونقها ، ثم سقطت جملةً بموت الروح القومية في الامّة ، واذ ذاك بلغت الدولة الرومانية من بسطة الملك وقوة الشوكة غاية ، ليس وراءها زيادة لمستزيد ، ثم ركدَت فيها ريح الحياة السياسية ، وسكن نشاطها المتجلي باعظم مظاهره ، وهدأت الحركة الاجتماعية التي دفعت هِمم القوم الى اقصى درجاتها ، ولا غرو

فكل ما بلغ الكمال تسارع اليه الزوال ، واذ لم يبقَ
ثمَّ من عمل مجيد ينصرف اليه سعي البشر ، ولا
مصلحة تعترض دون امانيّ نفوسهم ، وخلت قلوبهم
من تلك الهموم الناصبة ، استتبَّ للحقيقة أن تلجها
بسرعة ، على ما اقتضاه تمخُّضُ البحث عنها قروناً
عديدة ، تمادت بالناس في نشد الضَّالة ، فتمهدت
للنصرانية تُقحَمُ الطريق الى الظهور والانتشار ،
بما كان بينها وبين الفلسفة الوثنية من المشابهة في
بعض الحقائق ، على تعدد الضلال وتأصّله في
الوثنيين ، فكانت تلك المشابهة سبباً قرّب اليها
عدداً كبيراً منهم ، كيف لا وانّ تعاليم افلاطون
كانت قد اولعتهم بحبها ، وآداب المتأخرين من
مشايعي زينون ، كسينكا وابقتَطس ومرقص
اوراليوس وغيرهم ، قد سبقت فاستدرجتهم الى التمسك
بها ؟ وذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن اقليمس

الاسكندري حين قال : « لقد أُعطي اليهود شريعة ، والوثنيون فلسفة ليهتدوا الى المسيح » [(١)] انما اراد بقوله هذا المذهبَ الافلاطوني ، وما اخذ الرواقيون عن معلمهم زينون

وقد ساعد ايضاً مساعدة فعّالة على نشر الدين المسيحي ، وجودُ امم وشعوب شتى في أرجاء السلطنة الرومانية ، تضمّهم جامعة الوحدة السياسية ورابطة اللغة اليونانية ، فأُتيح للانجيل أن يسريَ في العالم سريانَ النور ، بما ذلّلتا له من المصاعب بمشيئة الله وقدرته .

(١) Clém ., Strom., I, 5, p. 331 éd. Potter ; VI, 6, p. 762

المحاضرة السادسة

توطئة

في رسالة المسيح والوهية

لقد اعلن المسيح ، منذ انبلج صبح بعثته ، أنه ابن الله ، وخاطب بذلك تلاميذه والجموع المتقاصفة عليه ، وصرّح به في جوابه لرئيس الكهنة ، حين استقسمه بالله لدى المحفل ،[1] وفي مواقف مختلفة ، واجاب على كل سؤال وُجّه اليه ، بأنه المسيح ابن الله ، فما تردّد في كلام ، ولا تقسّمه خوف ، وجاءت معجزاته واحدة بعد واحدة مثبتة لاقواله ، فحُقّ لنا تصديقه ، لانّ المعجزة فعل يعجز البشر أن يأتوا

---

(١) أنجيل متى ٢٦ : ٦٣ ـ ٦٦

بمثله ، مؤيد بحول الله وقدرته لنُصرة دعوته ، فوقوعها على وفق ارادة الكاذب وادعائه غير مقدور عليه ، لانه مصروف عن نية الخير ، بما في الكذب من الوجهة في المسبَّبات الى غير الله مسبِّبها ، والله الذي امرُه بين الكاف والنون ، يتعالى عن أن يظاهر الكاذب ، او يحتاج اليه في تأييد مشيئته

ولو فُرض مع ذلك بطلان ادّعاء المسيح ، لكان إما افّاكاً ، اراد اقتياد الناس الى اعتقاد ما لا يستصحّه ، وإما ممسوساً ، قد استصحّ ما كان يعلمّه من خطا ، وكلا القولين منفي بحكم العقل ، لثبوت ادّعائه بالمعجزات المستحيل وقوعها مع الكذب ، ولِما في كماله العقلي والادبي من الترفع عن دعوى الالوهة باطلاً ، وما في المسّ من الاعتراض دون ذلك ، لان الممسوس لا يملك نفسه ، فضلاً عن أن يملك تعليم الامم ، وهيهات أن يصحّ

هذا القياس الفرضي في المسيح على قداسته وسموّ تعليمه ، وأين يُطلب الصدق اذا ذهب عنه ؟ وهو المثبت الوهته ورسالته بالعجائب العظيمة ، فلعمرُ الحق لو نُسب الى عاقل ما فُرضت نسبته الى المسيح ، لـكذّب به الناس وقالوا باستحالته

واذ امتنع بالقياس أن يكون المسيح افاكاً أو ممسوساً ، ثبت ادّعاؤه بامتناع نقيضه ، ولزمنا تصديقه

وعليه فهاءنذا اشرع في تاريخ حياته الطاهرة ، الدالة على ثبوت بعثته والوهته وسائر الكمالات التي أحرزها ، وشهدت له السماء بها ، حين مولده ، وحين عماده ، وحين تجلّيه ، وفي غير ذلك من الظروف ، استناداً الى رواية الانجيل المنتهي الينا على رونقه وخلوصه من شائبة التحريف ، كما رأينا

— ١ —

في مولد المسيح

لا يستطيع احد أن ينكر ما للمسيح من المزية الفائقة على الملوك والاقيال والانبياء والمرسلين وخلق الله اجمعين ، فانه على خصاصته وهُون مولده في مِذوَد البقر ، قد دلَّت عليه نجوم السماء ، [1] وآذنت ببعثته اقوال الانبياء ، [2] فعلنوا الناس حدوث ولاده من عذراء ، [3] وانبأوا بزمان

---

(١) انجيل متى ٢ : ١ ـ ١٢

(٢) سفر تثنية الاشتراع ١٨ : ١٥ ـ ٢٠ والعدد ٢٤ : ١٧ والملوك الثاني ٧ : ١٢ و١٣ و١٦ ونبوءة ارميا ٢٤ : ٥ و ٦

(٣) نبوءة اشعيا ٧ : ١٤

ولادته [١] ومكانها، [٢] وما تبعها من الحوادث، كوفود الملوك عليه ومجيئهم بانفس ما عندهم من التقادم وسجودهم له ، [٣] وتقتيل أطفال بيت لحم ابتغاءَ قتله بينهم [٤]

وأتت الحوادث تترى [٥] بعد مولده ، تحقق اقوال الانبياء فيه ، وعلامات السماء عليه ، ودلّ مشهد الكون المتمخض به على أنه نسَمة سماوية والاله المتأنس ، الذي لم يكن لاحد من عواهل الارض وأرباب الصولة والسلطان ، ما كان له من العظمة ورفعة الشأن ، على ما عُرفت به حاله من الفقر والهوان ، فأخلقْ بهذا المولد العجيب

(١) سفر التكوين ٤٩ : ٨ ـ ١٠ ونبوءة دانيال ٩ : ٢١ ـ ٢٧
(٢) نبوءة ميخا ٥ : ٢
(٣) سفر المزامير ٧١ : ١٠ و١١ ونبوءة اشعيا ٦٠ : ١ ـ ٧
(٤) نبوءة ارميا ٦١ : ١٥
(٥) انجيل متى ١ ثم ٢ ولوقا ١ ثم ٢

أن يكون وحدَه حجة على الجاحدين واصدق
برهان على الوهته ، فكيف به وقد تلاه من
المعجزات وجلائل الاعمال ما أفحم اللاحدة
والمعطلة ؟ فآمن به الملوك والعظماء ونوابغ الخلق ،
واقرّ به القرآن والمشترعون ، ومجدته الاجيال
وتناصرت اقواله وافعاله على تأييد الوهته

أجل انّ الذي على خصاصته واتضاعه ، قد
ازرى مولده بكل عظيم ، وبرّز بعجائبه على الانبياء ،
وبذّ بتعاليمه العلماء ، وذهبت شريعته في الارض نوراً
تبددت به ظلمات الجهل والكفر ، وسلاماً لم يفعل
فعله العسكر المجر ، لهو الاله الذي لا يثبت جحوده
على الحجة . وكأني بأمير شعراء مصر أحمد بك
شوقي قد تجلت له فضائل المسيح ومزايا شريعته
السامية ، فنظم فيه أبياتاً من قلائد الشعر ، نثبتها
هنا تنويهاً به وإلماعاً الى نزعة الفريق العالم من المسلمين

الى الحقيقة ، ولا يعرف الفضل إلاّ ذووه قال :

وُلد الرفق يومَ مولد عيسى

والمروءات والهدى والحياءُ

وازدهى الكون بالوليد وضاءت

بسناهُ من الثرى الارجاءُ

وسرَت آية المسيح كما يسـ

ـري من الفجر في الوجود الضياءُ

تملأ الارض والعوالم نوراً

فالثرى مائج بها وضّاءُ

لا وعيدٌ لا صولةٌ لا انتقامٌ

لا حسامٌ لا غزوةٌ لا دماءُ

مَلكٌ جاور التراب فلمّا

ملَّ نابت عن التراب السماءُ

واطاعته في الاله شيوخ

خشّع خضّع له ضعفاءُ

اذعنَ الناسُ والملوكُ الى ما
رسموا والعقول والعقلاءُ
انما ينكر الديانات قوم
هم بما ينكرونه اشقياءُ [1]

(١) صفحة ٤٥٤ من مجلة الجامعة لسنتها الثالثة المطبوعة في الاسكندرية سنة ١٩٠١

—٢—

في حياة المسيح الى حين اظهار دعوته

لقد اوجز الانجيل في الكلام على حياة المسيح من مولده الى دعوته ، فلم يذكر منها إلاَّ نزراً ، ولا كتب الانجيليون سوى أنه كان يزاول النجارة ،[1] ويعيش عيشاً شظفاً غير حافل بزخارف الدنيا ونعيمها الباطل ، وهذا الوصف ، وإن قلَّ في جنب حياته الملأى بالعبر وآيات الفضيلة والطهر ، فانه على قلّته شيء كثير ، لايكاد سفر طويل يستوعب شرحه ، لما فيه من جليل الموعظة ونبيل القصد ، فهو عزّت حكمته انما سلك هذا السبيل من الحياة العاملة ، ليعلّم

---

(١) انجيل مرقس ٦ : ٣ ومتى ١٣ : ٥٥

الناس باعماله ما علمهم باقواله بعد اظهار دعوته ، من تجنّب الشر بالانصراف عنه الى الاعتصام باسباب النجاة منه ، فان في الكدح مايقصي الانسان عن السقوط في مهاوي الاثم ، ويصرفه عن نزوات النفس ومَواطن الريبة ، فكان للعالم مثالاً صالحاً وقدوةً سامية ، واين من هذا الصلاح مفاسد الامم الخالية ؟

فقد تسكع من قبل الكلدان والمصريون والفينيقيون واليونان والرومان وسائر شعوب الارض في دُجن الكفر والضلال قروناً طويلة ، واتخذوا من الحجارة آلهة ، واقاموا للظلم والدعارة وسائر الفواحش انصاباً يعبدونها في هياكلهم ، فوهت بما رعوا من تلك العبادات القبيحة مبادىءُ العدل والعفة ، وتفاقم الجور ، واستفحل الفجور ، وراح يفسد اخلاق البشر ، ويفعل فيهم فعل الداء العياء ، فلم ينجُ من ذلك اليهود ، وتفشّت فيهم عيوب جمّة ، بفعل الجوار

ومخالطة اولئك الشعوب ، واستغوتهم الدنيا بالكبر والابهة والمجد الباطل ، فضلّوا سبيلهم ، وعزب عن بالهم ما وصفت به المسيح اسفار الانبياء من تواضع وفقر وحياة فاضلة ، [١] فكان عقابهم شديداً ، ذلك بان ثقُل عليهم نير الامم وبهظتهم السلطة الجائرة ، فسألوا الله عزّ وجلّ أن يسرع في ارسال المسيح اليهم ، لينقذهم من العسف والحيف [٢]

فجاء المسيح وعلّم الناس تعاليمه السامية ، فكان لها دويّ في مشارق الارض ومغاربها ، وأثمرت ثمرة طيبة ، فآمن به مَن آمن ، وصلحت حال البشر بعد فسادها ، بما وضع لهم من الوصايا السماوية فسرَوا في ضيائه على نهج قويم وصراط سويّ

---

(١) نبوءة اشعيا ٤٢ : ١ ــ ٥ ثم ٦١ : ١ و ٢

(٢) Bossuet : Discours sur l'histoire universelle, P. II. ch. XVI, XVII et XVIII

ولما كانت تعاليمه على سهولتها غاية التمام، اجلّها الحكماء وأرباب الذكاء، وظهرت آثارها في كتبهم وخطبهم، ومن احسن ما قرأنا في الحضّ على فضيلة الزهد الذي علّمه المسيح، قول الامام علي بن ابي طالب: «طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، اولئك قوم اتخذوا الارض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً» الى أن قال: «ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح» [1]

(١) نهج البلاغة . الجزء الثاني صفحة ٨٧ بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٣٠٧

— ٣ —

في شهادات يوحنا بن زكريا برسالة المسيح والوهته

لما ازفت دعوة السيد، تقدمه يوحنا بن زكريا، يوطئ له الطريق ويعلن للعالم قرب ظهوره، على ما ذكرت النبوءات [1]

وليوحنا من الاحترام وعلوّ المقام، ما لا تنكره ملة من الملل الثلاث

قال الانجيل: «ليس في مواليد النساء نبيّ اعظم من يوحنا» [2] وذكر تبشير الملاك بولادته وامتلائه من روح القدس وهو في بطن امه، [3]

---

(١) نبوءة ملاخي ٣ : ١ واشعيا ٤٠ : ٣ ـ ٦

(٢) انجيل متى ١١ : ١١

(٣) انجيل لوقا ١ : ١ ـ ٢٦

وحياته الصالحة ، وانقطاعه في البرية الى أعمال البرّ والتقوى وعيشة القشف والشظف ، [١] وقتله بامر هيرودس لانه وبخه على تزوّجه بامرأة أخيه [٢]

وقال القرآن في رواية كلام الملائكة لابي يوحنا زكريا : « إنّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيَحْيى مُصَدِّقاً بكلمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ونَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ » [٣]

واكبرَ يوسفوس المؤرخ الاسرائيلي قداسته، وذكر إغراق اليهود في تعظيمه حتى اعتقدوا أن الله انما اضلّ سعي هيرودس ، وردّ كتائبه بالخيبة والفشل عقاباً له على قطع رأسه [٤]

فترى مما ذُكر أنه ظفر بالمنزلة العليا

(١) انجيل مرقس ١ : ٦
(٢) انجيل متى ١٤ : ١٠ و ١١
(٣) سورة آل عمران ٣٩
(٤) Josephus : Ant. Jud. XVIII — V —2

لدى الملل الثلاث بلا امتراء ، على أنّ قول القرآن في وصف يحيي « مصدقاً بكلمة من الله » هو ايمان النصارى ، بانه انما اتى للشهادة بمجيء المسيح كلمة الله ، وقوله « وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين » هو ما نصفه به نحن من هذه النعوت ، وقد أنبأ برسالة المسيح والوهته قُبيل ظهور دعوته ، واعلن اليهود بهما غيرَ مرة [١] باقوال شتى منها : « قوّموا طريق الرب هوذا حمل الله » [٢] وليس في الانجيل ما يحمل على نعته بالنبي غير هذه النبوءة ، وأما

(١) اعلن بذلك ثماني مرات : الاولى : انجيل متى ٣ : ١١ و ١٢ ومرقس ١ : ٦ — ٨ ولوقا ٣ : ١٥ — ١٧ . والثانية : انجيل متى ٣ : ١٣ — ١٧ ومرقس ١ : ٩ — ١١ ولوقا ٣ : ٢١ و ٢٢ ويوحنا ١ : ١٥ . والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة : انجيل يوحنا ١ : ١٩ — ٣٤ . والسابعة : انجيل يوحنا ١ : ٣٥ — ٤٢ . والثامنة : انجيل يوحنا ٣ : ٢٥ — ٣٦

(٢) انجيل يوحنا ١ : ٢٣ و ٢٩

القرآن فقد ذكر أنه نبي ولم يزد ، فيلزم عن ذلك
وجوب الاذعان لها ، وإلاّ كان جحودها معصيةً ،
او كان هو نبياً بلا نبوءة

— ٤ —

فى تعاليم المسيح

ذكر الانبياء أن المسيح يكون اعظم معلم للبشر ، وافضل مقوّم لأوَدِ الانسانية ،[1] وقد اثبتت ذلك تعاليمه الالهية ، ولفتت اليه انظار الجماهير ، واسترعت العقلاء اسماعهم ، فكانوا يتقاطرون اليه من كل أوب ، ويقضون العجب من صدقه ، وسداده ، وعدله ، وعلمه ، وحلمه ، ونزاهة نفسه ، الى غير ذلك من الفضائل والتعاليم ، التي لا تسمو اليها نفوس البشر ، فصحّ أنه نسمة الهية ، وقالوا : «انه ما نطق انسان قطُّ بمثل ما ينطق هذا الرجل »[2] وصرّح

(١) نبوءة اشعيا ٢ : ٢ و ٣ ثم ١١ : ٢ و ٩ ثم ٦٠ : ١ – ٧
(٢) انجيل يوحنا ٧ : ٤٦

القرآن ايضاً بسموّ تعاليمه ، حيث قال : « وآتَيْنَاهُ الانْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَيهِ مِنَ التَوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »[1] وقد صرّح بذلك في غير هذه الآية

فبقي أن ننعم النظر في شيء من الانجيل ، لنرى ما تجلى فيه من التعاليم الالهية ، وانتظم بين دفتيه من جواهر الحكم ، والمواعظ السنية ، فهو بما اوعى منها ، منارٌ للحياة الفاضلة ، وحرز عاصم من الضلال وسوء المصير

جاء في الانجيل : « طوبى للمساكين بالروح فانّ لهم ملكوت السماوات ، طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض ، طوبى للحزان فانهم يُعزّون ، طوبى للجياع والعطاش الى البرّ فانهم يشبعون ، طوبى

---

(١) سورة المائدة ٤٩

للرحماء فانهم يُرحمون ، طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله ، طوبى لفاعلي السلامة فانهم بني الله يُدعون ، طوبى للمضطهَدين من اجل البرّ فان لهم ملكوت السماوات

« قد سمعتم أنه قيل للاولين : لا تقتل ، فانّ من قتل يستوجب الدينونة . أما انا فاقول لكم : ان كل من غضب على اخيه يستوجب الدينونة ، ومن قال لاخيه راقا [(١)] يستوجب حكم المحفل ، ومن قال يا أحمق يستوجب نار جهنم ، فاذا قدّمتَ قربانك الى المذبح ، وذكرت هناك أن لاخيك عليك شيئاً ، فدَعْ قربانك هناك امام المذبح ، وامضِ اولاً فصالحْ اخاك ، وحينئذ ائتِ وقدّم قربانك

« قد سمعتم أنه قيل للاولين : لاتزنِ . أما انا

---

(١) هي كلمة شتم

فاقول لكم : انّ كلَّ من نظر الى امرأة لكي يشتهيها ، فقد زنى بها في قلبه

« قد سمعتم ايضاً أنه قيل للاولين : لا تحنَث بل أوفِ للرب بأقسامك . أما انا فاقول لكم : لا تحلفوا البتة ، لا بالسماء فانها عرش الله ، ولا بالارض فانها موطىء قدميه ، ولا باورشليم فانها مدينة الملك العظيم ، ولا تحلف برأسك ، لانك لاتقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء او سوداء ، ولكن ليكن كلامكم ، نعم نعم ، ولا لا ، وما زاد على ذلك فهو من الشرير

« قد سمعتم أنه قيل : العين بالعين ، والسنّ بالسن . أما انا فاقول لكم : لاتقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدّك الايمن ، فحوّل له الآخر ، ومن اراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فخلِّ له رداءك ايضاً ، ومن سخّرك ميلاً فامشِ معه اثنين ، ومن سألك فأعطهِ ، ومن اراد أن يقترض منك فلا تمنعه

« قد سمعتم أنه قيل : أحبب قريبك ، وأبغض عدوّك . أما انا فاقول لكم : أحبوا اعداءكم ، وأحسنوا الى من يبغضكم ، وصلّوا لأجل من يُعنتكم ويضطهدكم ، لتكونوا بني ابيكم الذي في السماوات ، لانه يُطلع شمسه على الاشرار والصالحين ، ويُمطر على الابرار والصالحين ، فانكم إن احببتم من يحبّكم ، فأيُّ أجر لكم ؟ اليس العشّارون يفعلون ذلك ؟ وإن سلمتم على اخوانكم فقط ، فأيّ فضلٍ عملتم ؟ اليس الوثنيون يفعلون ذلك ؟ فكونوا كاملين كما انّ اباكم السماوي هو كامل »[1]

« لاتكنزوا لكم كنوزاً على الارض ، حيث يُفسد السوس والآكلة ، وينقب السارقون ويسرقون ، لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء ، حيث لايفسد سوس ولا آكلة ، ولا ينقب السارقون ولا يسرقون ،

---

(١) انجيل متى ٥

لايستطيع احد أن يعبد ربَّين ، لانه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، او يلازم الواحد ويرذل الآخر ، لاتقدرون أن تعبدوا الله والمال [١]

« لاتدينوا لئلاَّ تدانوا ، فانكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم ، ما بالك تنظر القذى الذي في عين اخيك ، ولا تفطن للخشبة التي في عينك ؟ ام كيف تقول لاخيك : دعني أُخرجُ القذى من عينك ، وها ان الخشبة في عينك ؟ يا مراءي أخرجْ اولاً الخشبة من عينك ، وحينئذٍ تنظر كيف تخرج القذى من عين اخيك

« كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه انتم بهم ، فان هذا هو الناموس والانبياء

« ادخلوا من الباب الضيق ، لانه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي الى الهلاك ، والداخلون

---

(١) انجيل متى ٦ : ١٩ و ٢٠ و ٢٤

فيه كثيرون ، ما اضيقَ الباب واحرجَ الطريق الذي يؤدي الى الحياة ، وقليلون الذين يجدونه

« ليس كل من يقول لي يارب يارب يدخل ملكوت السماوات ، لكن الذي يعمل ارادة ابي الذي في السماوات ، هو يدخل السماوات »[١]

« ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أم ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه ؟ »[٢]

« إن اراد احد أن يكون الاول ، فليكن آخر الكلّ وخادماً للكلّ »[٣]

« إذا خطىء اليك اخوك ، فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد ، فان سمع لك فقد ربحت اخاك ، وإن لم يسمع لك ، فخذ معك واحداً او اثنين ،

(١) انجيل متى ٧ : ١ ـ ٦ و١٢ ـ ١٥ و٢١
(٢) انجيل مرقس ٨ : ٣٧
(٣) انجيل مرقس ٩ : ٣٤

لكي تقوم على فم شاهدين او ثلاثة كلُّ كلمة ، فان أبى أن يسمع لهم ، فقل للبيعة . ولما قال يسوع هذا ، دنا اليه بطرس وقال له : يا رب كم مرة يخطأ اليّ اخي فاغفر له ؛ أإلى سبع مرات ؟ فقال له يسوع : لا اقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات [1]

« اقول لكم : ان كل كلمة بطّالة يتكلم بها الناس ، يعطون عنها جواباً في يوم الدين [2]

« واقول لكم يا احبائي : لا تخافوا ممن يقتل الجسد ، وليس له بعدُ أن يفعل اكثر ، لكني ابيّن لكم ممن تخافون ، خافوا ممن اذا قتل ، له قدرة أن يلقي في جهنم ، نعم اقول لكم من هذا خافوا [3]

---

(١) انجيل متى ١٨ : ١٥ – ١٨ و٢١ – ٢٣

(٢) انجيل متى ١٢ : ٣٦

(٣) انجيل لوقا ١٢ : ٤ و ٥

« ان كل من رفع نفسه اتضع ، ومن وضع نفسه ارتفع [(١)]

« اذا صنعت غداء او عشاء ، فلا تدعُ احباءك ، ولا اخوانك ، ولا اقرباءك ، ولا الجيران الاغنياء ، لئلا يدعوك هم ايضاً ، فتكون لك منهم المكافأة ، ولكن اذا صنعت مأدبة ، فادعُ المساكين والجدع والعرج والعميان ، فتكون مباركاً ، اذ ليس لهم ما يكافئونك به ، فتكون مكافأتك في قيامة الصدّيقين [(٢)]

« لابدّ أن تقع الشكوك ، ولكن الويل لمن تقع عن يده ، انه خير لو عُلّق في عنقه حجر الرحى وطُرح في البحر ، من أن يشكك احد هؤلاء الصغار [(٣)]

« إن كنت تريد أن تدخل الحياة ، فاحفظ

---

(١) انجيل لوقا ١٤ : ١١

(٢) انجيل لوقا ١٤ : ١٢ ــ ١٥

(٣) انجيل لوقا ١٧ : ١ و ٢

الوصايا : لاتقتل ، لاتزنِ ، لاتسرق ، لاتشهد بالزور ، لاتخُنْ ، أكرم اباك وامك ، أحبب قريبك كنفسك

« إن كنت تريد أن تكون كاملاً ، فاذهب وبعْ كلَّ مالك ، وأعطهِ للمساكين ، فيكون لك كنز في السماء ، وتعالَ اتبعني »[١]

« أوفوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله »[٢]

تلك تعاليم المسيح ، جاء بها حين استفحل الضلال ، وقستِ القلوب ، وقامت سوق الكذب ، واستهتر الناس بالحرص والطمع والبغي والفجور ، وملكت الرذيلة أعنّتهم ، فكانت للانسانية دواءً لاسقامها ، وشفاءً من آلامها ، واصبحت العروة الوثقى بين البشر ، بما فرضت عليهم من الايمان ، والرجاء ، والمحبة ، والامانة ، والرفق ، والتواضع ،

---

(١) انجيل متى ١٩ : ١٧ ـ ٢٢

(٢) انجيل متى ٢٢ : ٢١

والصدق ، والتصدق ، والتسامح ، والرحمة ، والعفة ، والزهد في العالم ، والايثار ، وبذل الذات الى غير ذلك من الفضائل الراهنة ، فانتشرت في آفاق المعمور ، ودان بها الملوك والسوقة ، والسامة والعامة ، فدمثت بها الاخلاق الخشنة ، وساست الطبائع الشرسة ، وكان منها لذوي السلطان قوة على إحكام الشرائع ، وإمضاء الاحكام في الناس ، لاتغني عنها الكتائب ، ولو اطاق البشرُ شكيمتها ، لأُغمدت السيوف ، وسكنت الثائرة وانتفى التنازع من بينهم ، وانَّ ذلك لعنوانُ الالوهة ، إذ لم يعلّم نبيّ ولا حكيم ، ما علّم المسيح من التعاليم التي ، وطدت اركان السلم في الارض ، ولا اوعى كتاب من تلقين الفضائل ما اوعى الانجيل ، فاذا كان الانبياء والحكماء والبشر قاطبةً لم يستطيعوا الاتيان بمثل تعاليمه ، فهي ولاشك الهية من إله

— ٥ —

في معجزات المسيح

لقد ذكرنا ، في ما تقدم من كلامنا على رسالة المسيح والوهته ، قوله علناً ، انه ابن الله وله كمالاته كلها ، وصحّ عندنا وجوب الاعتقاد بقوله ، اخذاً بانّ صدق الدعوى وكمالها من صدق المدّعي وكماله العقلي والادبي ، وبانّ للمسيح من الصدق والكمال ، ما لا يعلو له الانبياء ، ولا يحصيه البشر ، ولكنّ الدعوى مجردةً عن الحجة ، لا يطمئنُّ العقل الى صحتها ، فبقيت دعوى المسيح على صدقه وكماله ، محتاجةً الى الاثبات بالبرهان والعمل اللائق بالالوهة ، ليصحّ ما قاله الانبياء [١] في معجزاته التي ، لم يأت

(١) نبوءة اشعيا ٣٥ : ٤ ـ ٧

بمثلها غيره من قبل ومن بعد ، ويستقيم اعتقاد اليهود ، أن المسيح سيبذ بالمعجزات موسى وسائر الانبياء ، فلما جاء تبارك اسمه ، وعمل ما ادهش العالم من العظائم ، وافحم بها كل مكابر جاحد ، شده اليهود بما سمعوا عنه ، ورأوا فيه ، فكانوا يقولون : « اذا جاء المسيح افلعله يعمل آيات اكثر مما عمل هذا ؟ » (١)

فلو عاش المسيح عيشة عقيمة من العجائب المسكتة ، ولم يؤيد رسالته بالبراهين المفحمة ، لأنكر الناس دعواه ، ولم يؤمن به احد ، فقد كانت المعجزات اذاً ضربة لازب لاثبات رسالته

والمعجزات ، هي للانبياء والمرسلين ، شهادة بصدق رسالتهم من قبل الله ، بيد انها للمسيح حجة الالوهة ، وبرهان السمو والتفوق على غيره

---

(١) انجيل يوحنا ٧ : ١٣

من الانبياء والمرسلين ، بما اجتمع فيه من الكمالات الالهية التي لم يتحلّ بها احد منهم ، فعلينا أن نسمع له ، ونستدلّ على الوهته باعماله ، لان الله يتعالى أن يسعف غير الصادق ، او يعجزَ عن خذل الكاذب ، فهيهات أن يصبر على اعمال المسيح ، لو كانت بدعة ، او يتجوّز في اتيانها باسمه ، فمما لا ريب فيه ، أنّ تلك العظائم هي عجائب الله نفسه ، وحجته على الخلق اجمعين بالوهة ابنه ، وقد اقطع المسيح بهذه الحجة ، من لم يؤمنوا به وارادوا رجمه ، حين عالنهم الوهته ، وخاطبهم بقوله : « اتقولون انك تجدّف لاني قلت : انا ابن الله ؟ إن لم اعمل اعمال ابي ، فلا تؤمنوا بي ، وإن عملت ، فان لم تريدوا أن تؤمنوا بي ، فآمنوا بالاعمال ، لتعلموا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأني في الآب »[1]

(١) انجيل يوحنا ١٠ : ٣٦ ـ ٣٨

ولما كان اتيان المعجزات شرطاً في اثبات الوهة المسيح ، شفى المرضى اينما جيء بهم اليه ؛ وصنع من العجائب ما لا يحصيه عدد ، غير ان الانجيليين قد اجتزأوا بذكر بعضها عن كلها ؛ نستدلُّ على ذلك بقول يوحنا الرسول : « وآيات أُخرى كثيرة صنع يسوع امام التلاميذ لم تُكتب »[١] وقوله : « واشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع ، لو انها كتبت واحدة فواحدة لما ظننتُ أن العالم نفسه يَسَع الصحف المكتوبة »[٢]

ونحن ذاكرون بايجاز ما جاء في رواية الانجيل من تلك الآيات ، وفي كل منها عبرة لمن اراد الاعتبار :

تحويل الماء الى خمر في عرس قانا الجليل[٣]

(١) انجيل يوحنا ٢٠ : ٣٠

(٢) انجيل يوحنا ٢١ : ٢٥

(٣) انجيل يوحنا ٢ : ١ ـ ١١

شفاء ابن رئيسٍ للملك في كفرناحوم [١]

شفاء رجل به روح شيطان في مجمع اليهود بكفرناحوم [٢]

شفاء حماة بطرس [٣]

شفاء ابرص في احدى مدن الجليل [٤]

شفاء مخلّع في كفرناحوم [٥]

شفاء رجل يابس اليد اليمنى يوم السبت في المجمع [٦]

---

(١) انجيل مرقس ١ : ٢٣ ـ ٢٨ ولوقا ٤ : ٣٣ ـ ٣٧ ويوحنا ٤ : ٤٦ ـ ٥٤

(٢) انجيل متى ٨ : ١٤ـ ١٧ ومرقس ١ : ٣٠ ـ ٣٥ ولوقا ٤ : ٣٨ ـ ٤٢

(٣) انجيل متى ٨ : ٢ـ٥ ومرقس ١ : ٤٠ ـ ٤٥ ولوقا ٥ : ١٢ ـ ١٥

(٤) انجيل متى ٩ : ٢ ـ ٨ ومرقس ٢ : ٣ـ١٣ ولوقا ٥ : ١٨ـ٢٦

(٥) انجيل متى ١٢ : ١٠ ـ ١٤ ومرقس ٣ : ١ ـ ٦ ولوقا ٦ : ١٢

(٦) انجيل متى ٨ : ٥ ـ ١٤ ولوقا ٧ : ١ ـ ١١

شفاء عبد قائد المئة ، وقد اشرف على الموت [١]

إحياء ابن ارملة الميت ، عند باب مدينة نائين [٢]

شفاء سقيم آتى على سقمه ثمانٍ وثلاثون سنة [٣]

تسكين الرياح والعاصفة ، وهو مع تلاميذه في السفينة [٤]

شفاء مجنونين في بقعة الجرجسيين [٥]

شفاء امرأة من نزْف دم مُزمن مسَّت ثوبه

---

(١) انجيل لوقا ٧ : ١١ ـ ١٧

(٢) انجيل يوحنا ٥ : ١ ـ ١٥

(٣) انجيل متى ٨ : ٢٣ ـ ٢٧ ومرقس ٤ : ٣٧ ـ ٤٠ ولوقا ٨ : ٢٢ ـ ٢٥

(٤) انجيل متى ٨ : ٢٨ ـ ٣٤ ومرقس ٥ : ١ ـ ٢٠ ولوقا ٨ : ٢٦ ـ ٣٩

(٥) انجيل متى ٩ : ١٨ ـ ٢٢ ومرقس ٥ : ٢٢ ـ ٣٤ ولوقا ٨ : ٤١ ـ ٤٩

فبرئت لساعتها، وكان داؤها قد اعيا الاطباء [١]

إحياء ابنة يائير رئيس المجمع [٢]

شفاء اعميين بلمسه اعينهما ، وهو في طريق اريحا [٣]

شفاء اخرس به شيطان امام جموع كثيرة [٤]

تكثير الارغفة الخمسة والسمكتين ، وإشباعه منها خمسةَ آلاف رجل ما خلا النساء والصبيان [٥]

مشيه وبطرس على مياه البحر [٦]

---

(١) انجيل متى ٩ : ١٨ و٢٣ ـ ٢٦ ومرقس ٥ : ٣٥ ـ ٤٣ ولوقا ٨ : ٤٩ ـ ٥٦

(٢) انجيل متى ٩ : ٢٧ ـ ٣١

(٣) انجيل متى ٩ : ٣٢ ـ ٣٤

(٤) انجيل متى ١٤ : ١٤ ـ ٢٠ ومرقس ٦ : ٣٤ ـ ٤٣ ولوقا ٩ : ١١ ـ ١٧ ويوحنا ٦ : ٥ ـ ١٣

(٥) انجيل متى ١٤ : ٢٣ ـ ٣٣ ومرقس ٦ : ٤٧ ـ ٥٢ ويوحنا ٦ : ١٦ ـ ٢١

(٦) انجيل متى ١٤ : ٣٤ و٣٥ ومرقس ٦ : ٥٣ ـ ٥٥

شفاء ابنة الامرأة الكنعانية [١]

شفاء رجل اصمّ اخرس في الجبل ، شرقيّ بحر الجليل [٢]

تكثير الخبزات السبع في البرّية ، واشباعه منها اربعة آلاف رجل سوى النساء والصبيان [٣]

شفاء اعمى قرب بيت صيدا [٤]

شفاء ممسوس كان يتخبطه الشيطان في رؤوس الاهلة [٥]

شفاء رجل اعمى منذ مولده ، عند بركة سلوام [٦]

---

(١) انجيل متى ١٥ : ٢١ ـ ٢٨ ومرقس ٧ : ٢٤ ـ ٣١
(٢) انجيل متى ١٥ : ٢٩ ـ ٣١ ومرقس ٧ : ٣١ ـ ٣٧
(٣) انجيل متى ١٥ : ٣٢ ـ ٣٩ ومرقس ٨ : ٨ ـ ١١
(٤) انجيل مرقس ٨ : ٢٢ ـ ٢٦
(٥) انجيل متى ١٧ : ١٤ ـ ١٧ ومرقس ٩ : ١٣ ـ ٢٦ ولوقا ٩ : ٣٧ ـ ٤٣
(٦) انجيل يوحنا ٩

شفاء رجل مجنون اعمى اخرس امام الجموع [١]

شفاء امرأة مريضة منحنية منذ ثماني عشرة سنة [٢]

بعث لعازر من موته ، وقد أتى عليه اربعة ايام [٣]

شفاء رجل مصاب بالاستسقاء [٤]

شفاء عشرة رجال برص ، وهو داخل الى قرية بين السامرة والجليل [٥]

شفاء أذن ملكس عبدِ رئيس الكهنة ، في بستان ضيعة جتسماني [٦]

---

(١) انجيل متى ١٢ : ٢٢
(٢) انجيل لوقا ١٣ : ١٠ ـ ١٤
(٣) انجيل يوحنا ١١
(٤) انجيل لوقا ١٤ : ١ ـ ٧
(٥) انجيل لوقا ١٧ : ١١ ـ ١٩
(٦) انجيل متى ٢٦ : ٥١ ـ ٥٥ ومرقس ١٤ : ٤٧ولوقا ٢٢ : ٤٩ ـ ٥١ ويوحنا ١٨ : ١٠

وقد وافق القرآن على هذه الآيات بقوله عن عيسى في سورة آل عمران : « وأُبرِىءُ الاكْمَهَ وَالابرَصَ وأُحيي الموتى »[١] ثم كرّر هذا القول في سورة المائدة ، وفيها قال يخاطبه ايضاً : « اذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ »[٢] وهو تعبير واسع جامع ، يرى فيه المتبصرون معنى قول الانجيل «واشياء أُخرى كثيرة صنعها يسوع »

فان قال قائل : ان الانبياء والمرسلين قد أتوا بمثل عجائب المسيح ، وانتم لا تعدّونهم آلهة ، ذكرناه بعجائب السماء ، التي ظهرت قبل مولده ، وحين صلبه ، وخلالَ ادوار حياته ،[٣] وكلها يؤيد الوهته ، بما لا يبقي مجالاً للريب

---

(١) ٤٩ (٢) ١١٣

(٣) هذه العجائب هي نبوءات الانبياء كما رأيت وسترى وظهور الملائكة قبل مولده وبعده وفي سائر اطوار حياته : انجيل متى١:

ذلك ، فضلاً عن أن الانبياء والمرسلين ، على ما فعلوا من الخوارق لم يدّعوا الالوهة ، ولا زادوا على أنهم رسل السماء الى الارض ، لهدى الخلق واعداد الطريق للرب ، فكانت عجائبهم اثباتاً لرسالتهم وشهادةً بصدقها فقط

ولم تكن هكذا رسالة المسيح ، ولا وقف ثبوت الوهته عند حدّ اعماله ، بل تسارع الانبياء الى الإخبار به ، وذكرِ صفاته ، والإنباء بما سيكون منه

٢٠ثم ٢ : ١٣ و١٩ ثم ٤ : ١١ ثم ٢:٢٨ و٥ ومرقس١:و١٣ولوقا ١: ٢٦ـ ٣٨ ثم ٢: ٩ ـ ١٦ ثم ٢٢ : ٤٣ ويوحنا ٢٠ :١٢.وظهور النجم للمجوس:انجيل متى ٢ : ٢ . وصوت الآب يوم عماده: انجيل متى ٣ : ١٧ ويوم تجليه: متى ١٧ : ٥ ويوم صلاته في الهيكل:يوحنا ٢٨:١٢ . وحلول روح القدس وقت عماده : انجيل متى ٣ : ١٦ . وظهور موسى وايليا اثناء تجليه على طور طابور : انجيل متى ١٧ : ٣ . وانتشار الظلام على الارض وقت صلبه: انجيل متى ٢٧ : ٤٥ . وانشقاق حجاب الهيكل وزلزلة الارض وقيامة اجساد القديسين عند موته: انجيل متى ٢٧ : ٥١ـ ٥٤

وله من المهد الى اللحد ، ثم بانبعاثه من القبر ، وصعوده الى السماء ، ولم يكن لاحد من الانبياء والمرسلين هذه المزّية

فهم كانوا يستمدّون السماء على صنع المعجزات ، فما أتوا منها كان بمشيئة الله وقدرته ، والمسيح كان يأتي العجائب من ذاته ، بمطلق ارادته وسلطانه على نواميس الطبيعة ، يتصرف فيها بين الكاف والنون ، ويقول للشيء كن فيكون ، [1] ولم تنحصر عجائبه في بقعة واحدة ، بل جاوزت الامكنة السحيقة ، [2] ولا احتاج الى الكلام في اتيانها ، لانّ لمس ثوبه ، او مجرّد نظرة منه ، [3] كان كافياً لصنعها ، فاين من هذه القدرة الذاتية

---

(١) انجيل متى ٨ : ٣ و١٥ و١٦ و٢٦ و٣٢ ثم ٩ : ٦ و٢٥ ثم ١٥ : ٢٨ ومرقس ٤ : ٣٩ ثم ٥ : ٨ ولوقا ٧ : ١٤

(٢) انجيل يوحنا ٤ : ٤٩ و٥٠ ومتى ٨ : ١٣ ثم ١٥ : ٢٨

(٣) انجيل متى ٩ : ٢١ ثم ١٤ : ٣٥ و٣٦

المطلقة ، قدرة الانبياء والمرسلين المحدودة المكتسبة بالمدد الالهي ؟ واين عجائبهم من عجائبه ؟

فهم كانوا يأتون المعجزات ، ولكنّ معظمها للنقمة ، ونزراً منها للرحمة ، فموسى الذي صنع اعظم الآيات ، على ما ورد في الكتب المقدسة ، قد ضرب المصريين بالضربات العشر ، ونكل بالاسرائيليين غيرَ مرة ، حين نكبوا عن طريق الله ، وصبأوا الى عبادة الاوثان ، ولم يجيء في عجائب المسيح شيء من هذه القسوة ، بل كانت كلها كشريعته في سبيل الرحمة ، لم يضرب ضربة ، ولا انزل عقوبة ، ولم يشأ أن يجيز طلب تلميذيه يعقوب ويوحنا حين سألاه أن يمطر على احدى القرى العاصية ناراً من السماء ، بل انكر عليهما طلب الانتقام ووبخهما عليه ، [1] وتجلت آيات الرحمة الالهية في سائر اعماله ، فغفر

---

(١) انجيل لوقا ٩ : ٥٢ ـ ٥٧

للزانية التائبة وأبى أن يدينها،[١] وصلى لاجل اعدائه ، وهو على الصليب يجود بآخر انفاسه ، وسأل الله أن يتجاوز عن إثمهم[٢]

ومن مزيّته التي لا يفاضله فيها نبيّ ولا رسول ، أنه افضى بالقدرة على اتيان المعجزات الى تلاميذه ،[٣] ثم جدّد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده الى السماء ، واورث كنيسته تلك القدرة ايضاً ،[٤] فانتشر الرسل في آفاق المعمور يدعون العالم الى الايمان به ، فملأوا الارض بالمعجزات ، وكانوا اقدر على صنعها من كل مَن تقدّمهم من الانبياء والمرسلين ، ولم يفتقروا في اتيانها الى غير ذكر المسيح ، يذللون به الصعاب ،

---

(١) انجيل يوحنا ٨ : ١١

(٢) انجيل لوقا ٣ : ٣٤

(٣) انجيل متى ١٠ : ١ ولوقا ١٠ : ٩ و١٧ و١٩

(٤) انجيل مرقس ١٦ : ١٥ – ١٩ ويوحنا ١٤ : ١٢

ويأتون باسمه العجب العُجاب ، على ما جاء في اعمال الرسل [١] والتاريخ الكنسي ، فكانت تلك الخوارق اعظم ما أثّر في قلوب الوثنيين ، وحملهم على الايمان بالمسيح والتمسك بدينه ، على ما فيه من شكيمة وازعة ، تنبو عنها طبائع القوم المستأسِرين لشهواتهم ، المنغمسين في ملذاتهم . وقام بعد الرسل الاطهار كثيرون من اصحاب الورع والتقوى ، فجادوا بنفوسهم دفاعاً عن بيضة الدين ، وصنعوا عجائب عديدة تضارع معجزات المسيح عينه ، وما فتئت تلك العجائب ، تفيض النعم الغزيرة على المؤمنين في كل صُقع ، وحسبك منها ما ذهب سمعه في الارض من عجائب لورد ، وما نال منها ذوو الاسقام من شفاء بعد أن اعيا الداء نطس الاطباء ، فاقبلَ الكفرة منهم على استقراء هـذه الحقائق ،

(١) ٣ : ٦ ثم ٥ : ١٢ و١٥ ثم ١٩ : ١١ و١٢

واكّدوا أن تلك الخوارق ، لم يسمُ اليها الطبُّ على ترقّيه في هذا العصر ، فبخعوا بالحق ، وفاءوا الى الايمان ، واعلنوا الملأ عجائب الله في قديسيه ، (١) والمسلمون انفسهم يقدّمون النذور لكنائس النصارى ، وذلك ولا شك دليل على ايمانهم بالمعجزات

وبالجملة فان الذي سبق الانبياء فانبأوا بكل ما كان منه وله ، واعتقد اليهود أنه يأتي من المعجزات بما لم يأتِ بمثله موسى ولا سواه من الانبياء ، وصرّح هو نفسه بأنه إله ، واثبت الوهته بآياته ، وايدته السماء بآيات أخرى رافقته في كل طور من اطوار حياته ، وصنع العجائب بمطلق ارادته ، وتصرّف في نواميس الطبيعة ، وكانت كلمة او نظرة منه تكفي لحصول المعجزة في بعيد الامكنة وقريبها ، ولمسُ

(١) Georges Bertrin : Histoire critique des événements de Lourdes, Paris 1908

ثوبه يُبرئ من الاسقام ويشفي من الآلام ، ولم يأتِ المعجزات إلاّ في سبيل الشفقة والرحمة خلافاً للانبياء والمرسلين ، واورث تلاميذه وكنيسته القدرة عليها ، لهو الشخص العجيب ، ويستحيل أن يكون إلاّ شخصاً الهياً ، قد نزل من السماء الى الارض لغاية سامية ، على ما قال هـو نفسه واثبت قوله بفعله

—٦—

في نبوءات المسيح

اعلن المسيح أنه ابن الله واثبت قوله بمعجزاته ، كما رأيت ، ثم اتبعها نبوءاته ، وقد تحققت جميعها ، فلو كان كاذباً ، لاعترضت السماء دونَ ثبوتها لئلا تنصر الكاذب وتؤيده ، أما وقد تمّت كلها ، فلا يمكن أن يكون المنبىء بها دجّالاً ، بل صادقاً كلَّ الصدق في ما ادّعاه

وقد كان اليهود يعتقدون أن المسيح المنتظر هو النبي ، فلما جاء يسوع ، وسمعوا كلامه العجيب ، ورأوا آياته السماوية ، اقرّوا له بالنبوءة ، واذعنوا بالحق ، بدليل قولهم : « هـذا في الحقيقة هو النبي » [1]

(١) انجيل يوحنا ٦ : ١٤

ووافق القرآن على ذلك ، اذ دعاه نبيًّا في مواضع كثيرة منه

فعلينا الآن أن نرسل النظر بين صفحات الانجيل ، لنرى ما سبق المسيح فأنبأ بوقوعه من الحوادث

ذكر الانجيل أنه أنبأ بآلامه ، وموته ، وقيامته ،[1] وصعوده الى السماء ،[2] وبما جرى في خلال آلامه من خيانة يهوذا ،[3] وجحود

---

(١) انجيل متى ١٦ : ٢١ ـ ٢٣ ومرقس ٨ : ٣١ ـ ٣٣ ولوقا ٩ : ٢٢ ثم متي ١٧ : ٢١ و٢٢ ومرقس ٩ : ٣٠ و٣١ ولوقا ٩ : ٤٤ و٤٥ ثم متى ٢٠ : ١٧ ـ ١٩ ومرقس ١٠ : ٣٢ ـ ٣٤ ولوقا ١٨ : ٣١ ـ ٣٤

(٢) انجيل يوحنا ٦ : ٦٣ ثم ٧ : ٣٤

(٣) انجيل متى ٢٦ : ٢١ ـ ٢٥ ومرقس ١٤ : ١٨ـ٢١ ولوقا ٢٢ : ٢١ ـ ٢٣ ويوحنا ١٣ : ١٨ ـ ٢٢

بطرس ، [١] وتخلي تلاميذه عنه ، [٢] فتمّت هـذه النبوءات كلها ، كما سترى في كلامنا على آلامه وموته، وقيامته وصعوده الى السماء

وأنبأ باضطهاد الرسل ، وموت بطرس مصلوباً ، [٣] فاكتمل ذلك على ما جاء في اعمال الرسل ، ورسائل بولس الرسول ، [٤] وشهد به التاريخ

وأنبأ بحلول روح القدس على التلاميذ بعـد صعوده الى السماء ، [٥] وبانتشار الانجيل في العالم

---

(١) انجيل لوقا ٢٢ : ٣١ ـ ٣٥ ويوحنا ١٣ : ٣٦ ـ ٣٨ ثم متى ٢٦ : ٣٠ ـ ٣٥ ومرقس ١٤ : ٢٧ ـ ٣١

(٢) انجيل متى ٢٦ : ٣١ ومرقس ١٤ : ٢٧ ويوحنا ١٦ : ٣٢

(٣) انجيل متى ١٠ : ١٧ ولوقا ٢١ : ١٢ ويوحنا ١٦ : ٢ ثم ٢١ : ١٨

(٤) اعمال الرسل ٤ : ٧ ثم ٥ : ٢٧ و٤٠ ثم ١٢ : ١ ـ ٤ ثم ٢٤ ثم ٢٦ ورسالة بولس الرسول الثانية الى أهل كورنتس ١١: ٢٤

(٥) انجيل لوقا ٢٤ : ٤٩ ويوحنا ١٤ : ١٦ و١٧ و٢٦ ثم ١٦: ٧ و١٣

كله ، وبما تلقاه الكنيسة من الاضطهاد ، وبخروجها منه ظافرةً على قوات الجحيم ، [١] فحلّ روح القدس على التلاميذ في اليوم الخمسين بعد قيامة السيد ، كما جاء في اعمال الرسل ، [٢] فامدّهم بالنور الالهي ، وانطقهم بلغات مختلفة ، فتكلموا على جهلهم بالحكم الرائعة ، والحقائق الراهنة ، وذهبوا الى كل صُقع يتلمذون الامم ، ويدعون العالم الى الايمان بالمسيح ، ومبيع الدين الصحيح ، فذلت لهم الصعاب بعونه تقدس اسمه ، وانتصروا به على كل خصم عاتٍ ، من ذوي السلطان وحزب الشيطان ، وآتاهم جُرأة الاسود ، فلم يثنيهم الخوف ، ولا استولى عليهم الرعب من تهديد الكفرة الظلام ، بل ذهب بطرس الى

---

(١) انجيل متى ١٦ : ١٨ ومرقس ١٣ : ١٠ واعمال الرسل ١ : ٨

(٢) ٢

رومة ، واندراوس الى يأجوج ومأجوج ، ويوحنا الى آسيا الصغرى ، ويعقوب الى اسبانيا ، ويهوذا تداوس اخو يعقوب الى ما بين النهرين ، وسمعان القانوي الى مصر وفارس ، وتوما وبرتلماوس الى الهند وارمينيا ، ومتى الى بلاد الحبشة ، [1] وجاب بولس ارجاء الشرق والغرب ، يبشر بالانجيل ويعلم الناس فضائل الدين المسيحي ، ناشداً ضالته في سحيق الديار وبين المهالك والاخطار [2]

وعقبهم خلفاؤهم ، فما كانوا دونهم غيرةً ، ولا قعدوا عن أيّ عملٍ مستطاع ، فاخصبت مساعيهم ، وكثر المهتدون الى الايمان على ايديهم ، حتى قال العلامة ترتوليانوس في نهاية القرن الثاني يخاطب الوثنيين مفتخراً : «إنا على طراءة عهدنا وجدّة

(١) التقليدات الكنسية

(٢) اعمال الرسل ورسائل بولس الرسول والتقليدات الكنسية

ايماننا ، منتشرون في سهولكم ، وحزونكم ، ودياركم ، وقفاركم ، وحقولكم ، وغيطانكم ، واسواقكم ، وبين قبائلكم ، ومتصدرون في مجالسكم ، فاذا جلونا عن مواطنكم ، فذلك عِقاب لها ولكم ، تصيرون من ورائه الى الخراب والدمار ، وتقفر بلادكم من الفضيلة وآلها ، والصنيعة ورجالها ، وتسكن حركتها سكون الموت ، فيخيفكم ما حولكم من الخلاء والعراء ، وتطلبون من تتسلطون عليهم ، وتنشبون فيهم اظفار ظلمكم فلا تجدون »[١]

فيُفهم من كلام ترتوليانوس ، أن المنضوين الى النصرانية في ريّقها ، كانوا قد اصبحوا سواد القوم في وقت قصير جداً ،[٢] وليس في هذا الكلام من

(١) Tertul., Apoleg., XXIV, 14

(٢) A. Harnach : Die Mission und Ausbreitung des Christenthums in den erstendrei Jahrhunderten. Leipzig, Hinrichs, 1906

غلوّ ، لانّ امماً عديدة كانت قد نبذت اضاليلها ، واقبلت الواحدة بعد الاخرى الى الدخول في الدين المسيحي ، على ما فيه من امساك عن الشهوات ، وقيد ثقيل على النفوس الرسالة على سجيتها ، فطلعت شمس الانجيل على ما وراء البحار ، وفي الجزائر ، وبين البرابرة والاقوام المتوحشين ، بفضل الغيرة العجيبة التي كانت تضطرم في قلوب الرسل ، فتحققت بذلك نبوءة المسيح ، وصدق وعده للصليب بالاستيلاء على العالم ، [١] فرأينا الملوك والشعوب ، واهل الثروة وذوي الفقر ، والفضلاء والاتقياء ، والحكماء والعلماء ، والشعراء والادباء ، وارباب الشرائع ، واصحاب الصنائع ، وكل ما في الكون من عظيم ، يحيّي المسيح وشريعته تحية الشاكر العارف بقدر الاحسان

ومضى على الكنيسة التي وضع المسيح دعائمها على

---

(١) انجيل يوحنا ١٢ : ٣٢

الصخرة عشرون قرناً ، تكافح اعداء الحقيقة واشياع الباطل ، فثُلّت عروش الملوك ، وتقوّضت أرائك السلاطين ، وتلاشت ممالك وشعوب كثيرة ، وكنيسة المسيح في الارض ثابتة الأواسي ، قائمة على الصخرة ، مركزاً للنور والقوة والحياة والادارة ، تحدّثُ العالم بانجاز المسيح لوعده ، وقوله لبطرس : « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة سابني كنيستي ، وابواب الجحيم لن تقوى عليها » [1] فلو هوت الكنيسة ، او وهت تلك الصخرة ، لكان وعد المسيح باطلاً وبناؤها واهياً ، أما وقد ثبت اساسها على مرور العصور وكرور الدهور ، واستمرّت تعاليمها واحدةً بلا تبديل ولا تغيير ، فهي اذاً كنيسة المعلم الالهي الذي احكمَ بالحكمة بنيانها ، ووطّد على الحق قواعدها واركانها ، فلها الملك والملكوت ، والبقاء والثبوت ، ما

(١) انجيل متى ١٦ : ١٨

تناسخت الاجيال وكلّ شيء دونها الى زوال

وأنبأ المسيح بخراب اورشليم [١] والهيكل ، حتى لايبقى منه حجر على حجر ، [٢] وقد تمت هذه النبوءة ، فان قسطيوس غالوس حاكم سوريا ، قد حاصر اورشليم في السنة السادسة والستين ، ثم جاء بعده تيطس الروماني وحاصرها في السنة السبعين ، فذكر المسيحيون نبوءة المخلص وجلوا عن المدينة قبل الحصار ، [٣] فلما احاطت بها جيوش تيطس واكتنفتها بالمتاريس ، وحفرت حولها الخنادق ، لم تلبث المجاعة أن تفشّت فيها وكظّت الشدة سكانها ، حتى اكلت

---

(١) انجيل متى ٢١ : ١٠ و١١ ثم ٢٣ : ٣٨ و٣٩ ولوقا ١٣ : ٣١ ـ ٣٤ ثم ١٩ : ٤١ ـ ٤٣

(٢) انجيل متى ٢٤ : ١ و٢ و١٥ ـ ٢٢ ومرقس ١٣ : ١ و٢ و١٤ ـ ٢٠ ولوقا ٢١ : ٥ و٦ و٢٠ ـ ٢٤

(٣) Eusèbe : Hist. eccl. : L. III. ch. V

النساء اولادهنَّ ، فتقدَّم تيطس الى عساكره بالهجوم عليها ، واوصاهم بحفظ الابنية والآثار ، فلم يُفلح ، لانَّ جيوشه دخلوا المدينة ، واستباحوا النهب والقتل ، ورمى بعضهم بشُعلة الى داخل الهيكل من احدى نوافذه ، فشبتْ فيه النار ، والتهمته برُمَّته على بذل الجهد في اخمادها. وذكر يوسفوس المؤرخ اليهودي هذا الحادث ، وعزا وقوعه الى مشيئة الله وإحاطته ، واعترف تيطس نفسه بانَّ لله يداً فيه ، وبانه لم يكن إلاَّ آلة مسخَّرة للانتقام ، فقتل في هذه الحرب الفَ الفِ نفس من اليهود ، وساق مئة الف اسير ، فضلاً عن أنَّ احد عشر الفاً منهم هلكوا بعضهم جوعاً ، وبعضهم انتحاراً من اليأس [١]

واراد يوليانس الجاحد أن يكذّب بنبوءة المسيح ، فأمرَ سنة اثنتين وستين وثلاث مئة بنسف بقايا الهيكل

(١) Josephus : De bello Jud., lib. VI cap. VI, 3

وأنقاضه لبناء غيره ، ففتح خزائن المملكة لليهود ، واطلق ايديهم فيها لهذا الغرض ، فلما نزعوا انقاضه ، واستنظفوا أساسه ، وباشروا بنيان الهيكل الجديد ، حميتْ الارض ، وقذفت بنيران هائلة ، فانكفّت الايدي عن العمل ، [١] وتمت بهذه المعجزة نبوءة المسيح ، ولم يبقَ من ذلك الهيكل الضخم حجر على حجر ، وعجز يوليانس الجاحد عن تجديده ، ولاغروَ فلا باني لِما هدم المسيح ، ولا هادم لِما بنى ، وفي خراب الهيكل ، واستمرار كنيسته ، عبرة لأولي الالباب

وأنبأ بانحلال مجامع اليهود ، وتشتتِ شملهم ، وحرمانهم مملكته الروحية ، وحلول غيرهم من الامم محلهم ، اخذاً لهم بإثمهم ، [٢] وقد اكتملت هذه

(١) Ammien Marcellin XXIII, 1

(٢) انجيل متى ٢١ : ٣٣ ـ ٤٦ ثم ٢٢ : ١ ـ ١٠ ومرقس ١٢ : ١ ـ ١٢ ولوقا ٢١ : ٢٤

النبوءة ايضاً ، وصار اليهود الى الذلة والجلاء ، فالذين عاشوا منهم بعد حلول النكبة باورشليم ، تفرقوا بعض في انحاء المملكة الرومانية ، وبعض في اليهودية ، وحاول هؤلاء التمرد على ادريانوس ، فلم يفلحوا ، واعملَ فيهم السيف ، فافنى منهم ست مئة الف نسمة ، وأُتمَّ جلاء البقية الباقية تخلصاً من شرهم ، [١] فقضتْ هذه الضربة على مملكتهم ، فان بقيتْ قوميّتهم فذلك شهادة بصحة النبوءات واكمالها . قال العلامة بوصويت : « لقد وجد الله طريقة لاستبقاء اليهود خارج بلادهم تحت نير الشقاء ، بأن احياهم الى ما بعد الشعوب المتغلبين عليهم ، فباد الاشوريون والماديون والفرس واليونان والرومان ، وغابت أعقابهم بين الشعوب الناشئة بعدهم ، وبقي اليهود عبرةً للامم وسبباً في خلاصها ، لانها ترى الاسفار المقدسة المنبئة بمجيء المسيح وعجائبه بين ايدي

(١) Dion. LXIX, 12 - 14

المؤمنين، سليمةً من الحذف والتحريف ، ومطابقةً لما هو منها بين ايدي اليهود، فتتعظ بهذه الاسفار الالهية وتظلّ متوقعةً ما سوف يُنزل الله من عقاب بالبقية التعسة من هذا الشعب الجاحد ، بعد أن كان شعبه الخاص الفائز منه بالعطف واللطف والاحسان » (١)

ففي مصير اليهود من تلك الحالة الى الذلة والمسكنة والشتات في الارض عبرة لمن اعتبر ، وفي اكتمال نبوءات المسيح جميعها ، دليلٌ على أنه كان يقرأ غامض المستقبل في لوح الغيب ، ومحال أن تظاهره السماء وتحقق نبوآته لو كان كاذباً . فيلزم ، وقد قال انه ابن الله ، وأتى اعمال الآله ، واثبت بالمعجزات دعواه ، واظهر سلطانه على الارض وفي السماء ، أن يبخع المكابرون بالحق، ويقرّوا بالوهته وبتجسده للغاية السامية التي هي خلاص النوع البشري

---

(١) Bossuet : Disc. sur l'hist. univ. IIe P., ch. XX

— ٧ —

في قداسة المسيح

ان المسيح بصفته الالهية لهو ذات القداسة والكمال ، فلا نريد هنا نعت الوهته بما اكتمل فيها من صفات النقاء والجلال ، بيدَ أنه لمَّا اعلن أنه ابن الله المتأنس ورسوله الى الخلق ، ليقيم لهم اركان الدين ، ويُهيب بهم الى طريقه المستقيم ، لزم أن يكون بصفته الانسانية ايضاً مثالَ القداسة والصلاح ، وقدوةَ البشر في ما يدعوهم اليه ويحملهم عليه ، ولما كانت قداسته قد ظهرت في حياته الارضية فائقةً طبائع البشر ، وما مارسه فيها من الحكمة والفضائل يجلُّ عن الشبه والمثل ، كان لا بدَّ لنا من إبانة ذلك ، وايضاح

ما نستدل به على الوهته على ما نحن باسطوه في ما يأتي:

لقد انكر الجاحدون عليه بنوّته ورسالته الالهيتين ، فنحن ندعوهم الى القياس العقلي لنيدفع الشك باليقين: فاما أن يكون المسيح قد استصحّ ماكان يعلمه من خطا ، فهو اذاً قد دُخِل في عقله . وإما أن يكون قد علم ما لم يكن يستصحه ، فهو مخاتل محتال . وليس في شيء من تعاليمه ، جلّ عُلاه وتقدس ظاهره ونجواه ، سمةُ المس ، ولا أمارة الخداع ، بل فيها نسيم الحكمة وعبير الفضائل العالية ، مما لا تضاهيه حكمة الانبياء ولا فضائل الرجال الاتقياء ، فان من فسد عقله ، ولم يملك من نفسه العنان ، لا يملك أن يجري لسانه في ارشاد الخلق ، وتعليم ما أُعجب به الكفرة والملحدون انفسهم ، ومن كان مبتدعاً ، لا يجد في سجيته ما يبعثه على مقاومة الاضاليل ، ومغالبة الشهوات ، وإزالة الاوهام المستولية على عقول البشر ، فان في

البدعة ما يقصيه ويقصيهم عن سبيل الرشد والكمال ، ويزيدهم غياً واسترسالاً في الفجور واستباحة المحظور ، الى غير ذلك مما تسوء به حال الانسان ، وتصير الى الفوضى لا يضبطها غير الحديد ، واين هذه الحال في البدعة من مآثر تعاليم المسيح وكمالاتها التي ذكرنا؟ وسنبين في ما يلي ما علمه الناس ايضاً بالمثل الصالح وممارسة الفضائل ، مستندين في ذلك الى رواية الانجيل عينه

فمن واجبات الدين وقواعده الاساسية ، محبة الله فوق كل شيء ، ثم اطاعته ، والعمل لمجده ، والاستمرار على الاتحاد به بواسطة الصلاة

ولقد كان المسيح قدوة في محبة الله وطاعته ، حتى تجرّد من ارادته وابتسل نفسه للموت صلباً تبعاً لمشيئة ابيه ، فقال قُبيل صلبه : « يا أبت إن شئتَ فأجزْ عني هذه الكأس ، لكن لا تكن مشيئتي بل

مشيئتك »[١] وعلّم الناس فضيلتي المحبة والطاعة في كثير من اعماله ، وما فتىء مصلّياً داعياً لله في سرّه وعلنه ، وفي عزلته وبين صحابته ، وفي كل زمان ومكان وحيالَ كلّ انسان ، يستنجد السماء ويشمل بدعائه خلق الله بلا استثناء ، ولم يأتِ قط عملاً لغير مجد الله وخير البشر

فكان بحر الصلاح الزاخر بجُمان الفضائل ، وجوهر الطهر الذي لم يعلق بقداسته لمم ، فاستطاع اذ كانت حياته سلسلة فضائل وكمالات ، أن يسأل اعداءه : « من منكم يثبت عليّ خطيئة ؟ »[٢] فبينا كان يقف نفسه لله ، كان يبذلها في سبيل خير البشر ، ويدعوهم باخوانه ، وينير بصائرهم بضياء علمه الالهي ويرشدهم الى طريق الحياة الخالدة ، ويمدّهم بحوله

---

(١) انجيل لوقا ٢٢ : ٤٢

(٢) انجيل يوحنا ٨ : ٤٦

وقوّته وينصرف بكل قدرته الى ما فيه مصلحتهم ، فيشفي المرضى منهم ، ويقيم المقعدين ، ويُبرئ البرص والصمّ والبكم والعُمي والعرج وذوي العاهات ، ويعيد الموتى الى الحياة ، وقد فاز الصغار ، والفقراء ، والخطأة ايضاً بالسهم الاوفر من هباته ، ولم يكن ليحدّث العظماء والاغنياء بشيء من الحقائق الجارحة ، لولا الرغبة في هُداهم الى سواء السبيل ، والحرص على سواهم من الضعفاء ، أن تسري فيهم عدوى تعاليمهم الفاسدة وامثالهم السيئة ، فاجتاز بالارض معلماً سماوياً ونسمةً الهية ، يُجزل على الخلق سوابغ النعم والبركات ، وينثر بين ظهرانيهم عجائبه نثراً

وكان يشفق على الشعب اليهودي الهائم في ضلاله قطيعاً بلا راع ويجزع عليه ، ويعزّي الحزناء ، وتأخذه الرأفة بالخطأة والاشقياء ويغفر للتائبين كأنهم لم يأثموا ،

وفي حوادث المجدلية ، [١] والزانية ، [٢] وزكـا العشّار ، [٣] ولـصّ اليمين ، [٤] والتجاوز عن قاتليه ، وهو يَـئِنُّ من كلوم الجلد والضرب وآلام المسامير والصلب ، بقوله : « يا أبتِ اغفرْ لهم لانهم لا يدرون ما يعملون » [٥] عبرةٌ تستنطق الصخور بسموّ تلك الروح العلوية ، وتظلُّ للانسانية الراقية منارًا ، ولعقول البشر وقلوبهم نورًا ونارًا

وتلك حقيقة اقرَّ بها اعداء المسيح انفسهم ، والفضل ما شهدت به الاعداء

قال ستراوس : « يستحيل أن يأتي بعد المسيح من يعلوه ، أو يدانيه ، أو يبلغ شأوه في الحياة الدينية » [٦].

---

(١) انجيل لوقا ٧ : ٣٧ ـ ٥٠
(٢) انجيل يوحنا ٨ : ١ ـ ١١
(٣) انجيل لوقا ١٩ : ٦ ـ ١٢
(٤) انجيل لوقا ٢٣ : ٣٩ ـ ٤٤
(٥) انجيل لوقا ٢٣ : ٢٤
(٦) Strauss : Du passager et du permanent dans le christianisme ; Altona 1839 ; p. 127

وقال غوتاي : « ان الاناجيل هي صورته المنعكس عليها نوره ، واني لأنحني امامها ، كما انحني امام قانون الهي لاسمى المبادىء الادبية » (١)

وقال بَرِكر : « سرى من المسيح نور جديد كالنهار ضياءً ، والسماء علواً ، وكالاله ثبوتاً ، فهو فوق الفلاسفة والشعراء ، وفوق الربانيين والانبياء ، وفوق كل شيء من الاشياء ، ولقد اتى على البشر ثمانية عشر قرناً ، ارتقوا فيها بالمسيح الى ارفع ذروات الكمال ، ولم يقم منهم في قرن من القرون من بلغ أوْج كماله » (٢)

وفي الجملة ، فانّ الذي قضى عمره من المهد الى اللحد ، متقلّباً بين أحناء الحق وأنحاء الصدق ، جامعاً بين الكمالات الالهية والفضائل الانسانية ، وآذنت اخبار

---

(١) Goethe : Entretiens avec Eckermann, III p. 171

(٢) Parker : Discours sur les matières relatives a la religion 1847, p. 275

الانبياء بصفاته ، وبكل فصل من فصول حيـاته ، وشُده بتعاليمه العلماء والحكماء ، وظهر من قداسته ما اقرّ به الاعداء، واعترفت به الارض والسماء ، لهو اله بلا امتراء، فأحرِ بنا أن نستدل بقداسته على ألوهته

— ٨ —

في آلام المسيح وموته (١)

لم تأتِ ثلاث سنوات على صوت يوحنا الصائت في البرية : « قوّموا طريق الرب هوذا حمل الله » (٢) حتى نُصبت على نشزٍ من الارض في جوار اورشليم ثلاثة صلبان اطاف بها الجند وانتشر حولها الشعب وقد عُلق على احدها بين لصّين ، رجل كان قد هبط المدينة قبل ايام قليلة ، وخرج اهلها للقائه بين مظاهر الابهة ومجالي الحفاوة ، وبالغوا في اكرامه واستقبلوه استقبال الملوك ، فلما احاطوا بالمصلوبين ، إذا بذلك الرجل العظيم والمعلم العجيب ، الذي لم ينطق حكيم بمثل ما نطق به ، والمحسنِ

(١) Monsabré : Carême 1879 ; 47e conf.

(٢) انجيل يوحنا ١ : ٢٣ و٢٩

الكريم الذي طرد الابالسة والشياطين ، وشفى المرضى والمقعدين ، وأبرأ البرص والصمّ والبكم والعمي والعرج وذوي العاهات ، واعاد الموتى الى الحياة ، وعمّ بجليل حسناته وجزيل هباته جميع المخلوقات ، مصلوب بين لصّين ، لم يجترح نُكراً ولا جاء شيئاً إمراً ، وقد كانت نجاته طوع بنانه وبين شفتيه ولسانه ، ولكنه اراد الموت قياماً بدعوته السامية ، وغسلاً لآثام البشر بدمه الاطهر

وكان الكهنة والفريسيون قد حقدوا عليه ، واضمروا قتله مسوقين بدافع الحسد ، لما رأوا في اقواله من الحكم الزاجرة ، وفي افعاله من الآيات الباهرة ، فراحوا يتسقطونه ويتطلبون عثرته ، فما ظفروا بطائل ، بل كان يفحمهم بالجواب السديد ، ولما أعيا عليهم أن يؤاخذوه بذنب ، لجأوا الى معاملته بالقسوة والعنف ، فكان يتوارى عنهم ، ويجتاز بين الجموع الملتفة عليه تخفره الهيبة ويحرسه الجلال ، ولا يجترىء احد أن يمسّه بسوء ، فلم تجدِ حيلة اعدائه في ايذائه

وقد عرفوا أنه سيؤمُّ المدينة في عيد الفصح ، فاذكوا العيون في طلبه ، واغروا احد رسله بالمال ليحملوه على خيانته ، فتفرق جندهم واعوانهم يتأثرونه بارشاد يهوذا التلميذ الخائن ، فانتهى بهم اليه معتزلاً للصلاة في بستان جتسماني ، فدنا منه وقبّله قبلةً ، كان قد اتفق عليها مع طالبيه ، أمارةً على أنه غرض الرامي ، فاسلم الى الموت يتيمة المحبة والحنان ، وآية الرحمة والاحسان ، والمعلم الالهي الذي لا يساميه في الفضيلة انسان ، فثار به الجند واوثقوه ، ثمّ ساقوه الى محكمة الاحبار نقيّ الثوب بريئاً من الإثم

وكان رؤساء الكهنة قد وغرتْ صدورهم عليه ، لِما فضح من مكتوم سيئاتهم ، وهتك من مستور قبائحهم ، فاشربوه ما لم يشرب ، وجعلوا يتناوبون على استنطاقه ، وقد اصمّوا عن دفاعه ، ولم يلووا على شهادة اتباعه ، وجاءوا بشهادات ليس لها ظلُّ الحقيقة ، فأوّلوا كلامه وحرّفوه ، وذهبوا في الاختلاق والتهديد والعنف كل

مذهب ، فلم يفلحوا ، وتعذّر عليهم الاهتداء الى مسوّغ الحكم عليه ليتبرّأوا به من ظلمهم ، فوقف رئيس الكهنة وجعل يستحلفه بالمحرِّجات ويسأله : « هل انت المسيح ابن الله ؟ » فاجاب يسوع : «انت قلت »[1] ولم يُتمّ كلمته هذه ، حتى تميّز رئيس الكهنة غيظاً ، واعلن استغناءه عن الشهادة ، لزعمه أن المسيح قد جدّف على حدَق القوم ، وتبعه الجمهور يطلبون موته نزولاً على رأي الرئيس ، ومتابعةً له على حكمه ، فاحتمل المسيح بطبيعته الانسانية ، ضروب الاهانة والتعذيب وآلام الصلب والموت تأييداً لألوهته

ولا جرم أن الموت مسبوقاً بآلام الضرب والصلب ، وسيلة غريبة الى اثبات الوهته ، ولكنّ احتماله على ذلك النحو ، كان امراً محتوماً عليه ، ونتيجةً قد استلزمتها

---

(١) انجيل متى ٢٦ : ٦٣ و ٦٤

المقدمات المنبئة بوقوعه ، على الاسلوب الذي تمّ به ، فهو اذاً احدى وثباته الى الظفر الالهي والفوز بالغرض السامي الذي جاء لاجله ، عالماً كل العلم بما يعقب رسالته من الصلب والوان الهوان والعذاب ، وبما يكون لها من الأثر الخالد في نفوس البشر ، والفعل المجيد في اصلاح شؤونهم الروحية والمادية ، فاحتمل الموت على الصليب يبتغي به الوصول الى غايته ، وقد تمّ له ما اراد ، وانّ هذا لَعنوان الالوهة ، ومن كان في ريب من ذلك ، فنحن مثبتوه له بإبانة الفرق بين موت المسيح وسواه

فالموت لا يُعرف منه إلاّ دنوّه استدلالاً عليه بما يسبقه من العلامات والاعراض ، ولم يتخطّ علمُ العلماء هذه الدرجة من المعرفة ، على أنها ضرب من التكهن والرجم وكثيراً ما لا تصدق ، وليس هكذا موت المسيح الذي اعلنت به النبوءات البعيدة ، وكيّفته بالعلامات الاكيدة ، وقد كان معلوماً عنده قبل وقوعه ، فذكرَه ووصفه كما

حصل ، وانما يعلم كيفية الممات ربُّ الموت والحياة ، ومحصي الدقائق والساعات

ولم يكن ظهور المسيح على الارض حادثاً فاجئاً فيُنكر ، ولا بدعةً فيُهجر ، بل تقدمه اربعون قرناً ، ظهرت في كل منها اشعة ساطعة رسمت للبشر هيئته ، ايذاناً بمجيئه ، وامراً باحترامه ، والاصغاء الى كلامه ، ولم يدفع كل هذا اليقين قحة الجاحدين ، ولا شكّ المؤمنين ، اذ رأوه بين ايدي اعدائه ، مسوقاً الى الصلب نقيَّ الجيب بريئاً من العيب ، فقد استولى عليهم الذُعر ، وخامرهم الشك ، وفاتهم أن يعلموا أن الصلب لم يكن لأَطيره بل كان دارةً من دارات مسيره ، وحلقةً من سلسلة النبوءات ، تنعقد بها النتائج بالمقدمات ، ثم انبلج لهم صبح اليقين ، وانفتحت عيونهم للحقيقة ، فصدّقوا أن ما حلّ به من الهوان والضرب والصلب ، كان مجازاً الى مجده الخالد مسبوقاً بالعلم الالهيّ ، ولا بدّ منه لتحقيق الرؤى التي أوحي

بها ووصفتها الكتب المقدسة قبل ظهوره على الارض

ومن كان في ريب من ذلك ، فليجمع اقوال الانبياء ، ويقابلها برواية الانجيل فيتألف لديه نسختان ، كلٌ منهما عِدلُ الاخرى ، على أن الانبياء قد سبقوا فأنبأوا بخيانة الاسخريوطي ، [١] والثمن النزر الذي تناوله جزاءَ خيانته وابتيع به حقل الخزاف ، [٢] وبقصر ايام الخائن وهلاكه ، [٣] ونزع المسيح في بستان الزيتون ، [٤] وتفرّق شمل الرسل وقت آلامه ، [٥] وباتفاق الامم واليهود في الحكم عليه بالموت ، [٦] وبشهود الزور الذين شهدوا عليه ، [٧]

---

(١) سفر المزامير ٤٠ : ١٠
(٢) نبوءة زكريا ١١ : ١٢ و ١٣
(٣) سفر المزامير ١٠٨ : ٦ ـ ٩ و ١٦ ـ ٢٠
(٤) سفر المزامير ٥٤ : ٥ و ٦
(٥) نبوءة زكريا ١٣ : ٧
(٦) سفر المزامير ٢ : ١ و٢
(٧) سفر المزامير ٣٤ : ١١و١٢

وبما عانى من الجلد واللطم والبصق في وجهه ،[1] وبثقب يديه ورجليه بالمسامير ،[2] واستهزاء اليهود به ،[3] وبما سُقي من خلّ ومرّ وهو على الصليب ،[4] وبتقاسم الجند اثوابه واقتراعهم على لباسه ،[5] حتى ان بعضهم قد ذكر الآية التي نطق بها قُبيل موته ،[6] وذكروا طعنه بالحربة ،[7] وأنبأوا بموته ،[8] كما أنبأ المسيح نفسه بكل ما وقع له على ما اسلفنا

فيرى القارىء ، بمعارضة اقوال الانبياء بحياة المسيح

---

(١) نبوءة اشعيا ٥٠ : ٦
(٢) سفر المزامير ٢١ : ١٧ و١٨ ونبوءة زكريا ١٣ : ٦
(٣) سفر المزامير ٢١ : ٨ و٩ والحكمة ٢ : ١٨ ـ ٢١
(٤) سفر المزامير ٦٨ : ٢٢
(٥) سفر المزامير ٢١ : ١٩
(٦) سفر المزامير ٢١ : ٢
(٧) نبوءة زكريا ١٢ : ١٠
(٨) نبوءة اشعيا ٥٣ : ٧ و٨

ومناجريّاتها ، [1] أن نبوءاتهم قد تمت في نسق لم يترك مجالاً للشك في أن يسوع كان المسيح المنتظر

ومن اعجب العجب أنه لم تفارقه القوة على صنع المعجزات الى آخر حياته ، فقد شفى خادماً لرئيس الكهنة كان قد صلمَ أذنه احد تلاميذه ، وتصرف في نظام الطبيعة فكسف الشمس ، وزلزل الارض ، وبعث الموتى يقذفون الرعب في القلوب ، واظهر للملأ أنه له وحدَه القدرة والسلطان المطلق ، وأنه هو المبتسل نفسه للموت بارادته ، وحين تقدم الجند وخدام رئيس الكهنة لايثاقه ، سألهم بجرأة : « من تطلبون ؟ » فاجابوه : « يسوع الناصري » فقال : « انا هو » فارتدوا عنه وسقطوا على الارض مغشياً عليهم ، وقد كان في وسعه أن يتركهم وشأنهم ، وينصرف

---

(١) انجيل متى ٢٦ و٢٧ ومرقس ١٤ و١٥ ولوقا ٢٢ و٢٣ ويوحنا ١٨ و١٩

عنهم في خُضراء من هيبته وحرَس من جلاله ، كما فعل يوم اجتاز بين الجمهور الغفير الذي كان يطلبه ليقذفه من على الجبل ، ولكنه امهلهم ريثما افاقوا ، وقال لهم : « إن كنتم تطلبوني فدعوا هؤلاء يذهبون » [١] يريد تلاميذه ، ففداهم بنفسه ، وكان كلامه لطالبيه كلامَ من له السلطان المطلق عليهم ، فدلّ بذلك على أن الموت كان بغيته المطلوبة وضالّته المنشودة ، وإلاّ كان في طاقته ، وهو ابن الله المتسلط على نظام الطبيعة ، أن يستنزل ملائكة السماء لتدرأ عنه الموت

وقد اوجز المسيح كلامه في آلامه ، بيدَ انه على ايجازه ، كان آية الاعجاز في البلاغة وحسن التأثير ، دلّ على أنه صاحب الكمالات ، والمعلم الالهي الآتي العالمَ لنهج الطريق المستقيم وبثّ التعليم القويم ، بالقدوة الصالحة والموعظة المثلى الدالتين على صحة رسالته وحقيقة ألوهته ،

---

(١) انجيل يوحنا ١٨ : ٤ ـ ٩

بما فيهما من آيات المحبة والرحمة ، والتجاوز عن الاساءات ، الى غير ذلك من مكارم الاخلاق والمروءات ، المتضوّع عرفُها في جليل اعماله وجميل اقواله ، مما تنحطّ عنه طبائع الآدميين ، ولا يسمو اليه غير إله ، وحسبك منها ما قاله لتلميذه الخائن : « يا صاحب لايّ شيء جئت؟ يا يهوذا أبقبلة تسلّم ابن البشر ؟ » [١] وما قاله وهو على الصليب يجود بآخر نفس من انفاسه الطاهرة : « يا أبتِ اغفرْ لهم لانهم لا يدرون ما يعملون » [٢] وتلك لعمرُ الحق كلمات ، شهد العقل والنقل ، بأنْ لم تسمع مثلها الآذان ، واليها ينتهي الحلم والمسامحة ، وعندها يقف الكمال ، فلا يبلغه البشر ما تهذبت نفوسهم ، والتاريخُ مرآة العصور الخالية ، لم يَروِ موتاً عجباً كموت المسيح ، وقد كانت آخر كلماته :

---

(١) انجيل متى ٢٦ : ٤٩ و ٥٠ ولوقا ٢٢ : ٤٨
(٢) انجيل لوقا ٢٣ : ٣٤

«لقد تمّ» [١] فكان يرى ببصيرته الالهية ما قالت عنه النبوءات ، ويعلم أن موته هو المكمل لسرّ الفداء العجيب ، ومجازُ الرُجعى الى أبيه والدخولِ في ملكوته الابدي ، الذي هو الحلقة الاخيرة من سلسلة تلك النبوءات ، وقد تحمله بارادته انجازاً للغرض من رسالته ، فكأنّ الكاتب فصول هذه الرواية هو الذي أتمّ تمثيلها بلا زيادة ولا نقصان

وقد اثبتت السماء رسالته ، وأيدت الوهته ،فكُسفت الشمس يوم البدر في سواء النهار ، وارخى الظلام سدوله على الارض طويلاً ، [٢] وزُلزلت الارض زلزالها ، والقت

---

(١) انجيل يو حنا ١٩ : ٣٠

(٢) هذه الاعجوبة كانت مدونة في سجلاّت رومة وذكرها ترتوليانوس في دفاعه عن النصرانية اذ قال يخاطب الوثنيين : « ولما مات المسيح كسفت الشمس في رائعة النهار فكان كسوفها شهادة باهرة له وفي سجلاّتكم ذكر لهذا الحادث الغريب »
Tert. : Apolog., cap. XXI

الجبال اثقالها ، وانشقّ حجاب الهيكل ، وتفلقت الصخور ، وتفتحت القبور ، ونُشر الموتى ، فكان ذلك كله شهادة للمسيح وعبرة للملحدين

وقد تعاقبت السنون ، وتناسخت القرون ، وذكرُ المسيح حيّ يقدسه الآباء والبنون ، فما عبث به زوال ، وما اعتراه نسيان ولا اهمال ، وتلك احدى اعاجيبه ، ومعجزة من بدائع اساليبه ، لاثبات الوهته ، واستبقاء رسالته ، فهو الحيّ الباقي وكل من عليها فانٍ

ومن تدبّر نبوءة المسيح : « وانا اذا ارتفعت عن الارض جذبت اليّ الجميع » (١) حصحص له الحق ، وثبت عنده

وتقلها ايضاً يوليوس الافريقي عن فلاغون الفيلسوف الذي بيّن ان الكسوف وقع خلافاً لنظام الطبيعة . فقال : « روى فلاغون ان الشمس كسفت يوم البدر على عهد طيباريوس قيصر ودام كسوفها من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة »
G. Syncelli Chronographia, bonnae 1820 p. 610

(١) انجيل يوحنا ١٢ : ٣٢

أن موته كان حكماً جزماً عليه ، لانقاذ النوع البشري من الجحيم وعذابه الاليم ، وتقويم ما التوى من مسالك الانسان بصحيح التعليم ، وقد تمّ له ذلك بحوله وقوته ، ومع أنه صلب ومات موت العار ، فقد انحاز الى دينه ، وانضوى تحت لوائه الوفُ الوفٍ من الناس ، فكثير منهم ابتسلوا نفوسهم للموت دفاعاً عن حوزة الدين ، وكثير من اقطاب العلم وارباب الفهم ، وذوي المكانة والثراء ، كفروا بالعالم واباطيله ، وانقطعوا الى عبادة الله في الصوامع والاديار ، وآخرون راحوا يضربون في اطراف الارض للتبشير بالانجيل ، وارشاد الخلق الى دين الحق ، ويتجشمون شقّ النفس ويقاسون انواع العذاب ، وآخرون حبسوا نفوسهم على خدمة المرضى ، وعلى سواها من اعمال البرّ والتقوى ، حتى العذارى البارعات في الجمال ، وصاحبات الثروة والاموال الطائلة ، قد هجرنَ قصورهنّ الشاهقة ، وكفرنَ بنعيم الدنيا وزينتها

الزائلة ، واعتضن عنها ثروةً من الفضائل ، وكنزاً من مساعي الخير ، وصرنَ على رهادتهن ، وعجزهن عن تحمل المشقات ، يفعلنَ افعال الرجال الناصبة ، ويؤسسنَ باموالهن ملاجىء العجزة ، ومآوي الايتام ، ويربينَ اللقطاء ، ويطعمنَ الفقراء ، ويتبارينَ في سائر اعمال الرحمة ، كل ذلك حبّاً للمسيح ، وسعياً على آثاره ، مما لا يُلفى له مثيل في الغير المسيحيين من الامم ، فزها الكون باعمال المحبة والرحمة الناجمة عن تعاليم المصلوب ، واصبح تبّاعه بلسماً لجراح الانسانية ، وجنوداً بسلاء ، لاستئصال الرذيلة ، وإحياء الفضيلة ، وعاد صليب العار ، شعار الشرف والفخار ، تتحلّى به تيجان الملوك ، وقباب الكنائس ، وصدور الابطال ، واعناق الاوانس ، في ساحات النزال ، وصدور المجالس ، وتتسمُ به الاعلام ، ويمشي تحته الجيش

اللُهام ، وتُراض بِقِصَدِهِ منه الصعاب ، ويُستفتح بذكره كل عمل فيه ثواب ، ويرتفع على البر الفسيح والبحر العباب

تلك ، وعمر الحق ، آيات الله ، فما أحرى اهل البصائر بالاهتداء الى الايمان ، وفي كل منها على الوهة المسيح وسواء سبيله حجة وبرهان

— ٩ —

في ثبوت موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء [1]

لقد اسلفنا أن المسيح لم يمت مرغماً كالبشر ، بل بملء ارادته ، ولو شاء النجاة لما اعجزته الوسيلة ، وهو صاحب القدرة والمعجزات ، ولكنَّه أبى إلاَّ الموت قياماً بمشيئة أبيه ، وانقاذاً للانسان الذي جاء ليفديه ، واذا كان وقوع وفاته وفقاً لاقوال الانبياء واقواله نفسه يُعدُّ امراً عجباً ، فقيامته من بين الاموات ، هي ولا جرَم معجزة المعجزات ، وتكاد لغرابتها تكون خرافةً من الخرافات ، لو لم يتضافر

---

(١) انجيل متى ٢٦ و٢٧ و٢٨ ومرقس ١٤ و ١٥ و ١٦ ولوقا ٢٢ و٢٣ و ٢٤ ويوحنا ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١

على تأييدها إجماع النصارى ، وشهود المأتم من الرسل ، واليهود انفسهم

فقد روى يوحنا الرسول موت المسيح بناءً على ما رآه بعينه ، لانه بقي ملازماً معلمه الالهي الى جانب الصليب ، حتى فاظت روحه الطاهرة ، وشهد بذلك الرسل باجمعهم والمريمات على ما ورد في الانجيل

وثبت موته لليهود ، ذلك بأن جاء يوسف الرامي الى بيلاطس يستأذنه في دفن جثمانه ، فلم يسمح به حتى شهد بموته قائد المئة ، وارسل ارباب السلطة جندهم للاجهاز على المصلوبين بكسر سوقهم تبعاً للعادة في ذلك العصر ، وكان المسيح قد مات ، فلم يكسروا ساقيه

ولو ارتاب اليهود بموته ، لما أبطأوا في إنباء الحكام بذلك ، ولا تريثوا في الاجهاز عليه بايديهم ، وهم اعداؤه الناقمون عليه

بل لو لم يمت وكان قد دُفن حيًّا ، لتذرّع اليهود بهذا الموت الكاذب الى انكار عجيبة القيامة ، وقالوا انه لم يمت وانما دُفن حيًّا ، فانسلّ من القبر ، وكان لهم بقول الصدق منتدح عن الكذب ، فان قيام الحيّ من القبر اقربُ الى التصديق من قيام الميت

على أن آلام جلده ، وتكليله بالشوك ، وصلبه ، واصمائه بالطعنة النجلاء من حربة الجندي المفتول الساعد اسباب كان في بعضها غنىً لقتل رجل قويّ ، فكيف بها وقد تتابعت كلها عليه ؟

وهبهُ قد أُلحد وفيه رمَق ، فان الجسم الذي صار الى الوهن بفعل تلك الآلام المبرّحة ، كان بقاؤه حيًّا على رائحة الحنوط ، وحزْق اللفائف ، وضغطة القبر المنقور في الصخر ، امراً مستحيلاً

فلما تحقق موته للحكّام وذوي السلطة بكل هذه الادلة ، وانتفى الشك من قلوبهم ، واذنوا في دفنه ،

خاف اليهود أن يأتي تلاميذه ويأخذوا جثمانه خُلسةً ، فانتبلوا للامر ، وختموا القبر بختم الحكومة وامروا الجند ، فاحاطوا به وبالغوا في حراسته

فاذا كان الحكّامُ ، وهم القادرون على استجلاء الغامض وكشف الحقيقة ، بما لهم على ذلك من مقدرة ويد عالية ، قد تحققوا موته ، واليهودُ وهم اعداؤه قد شهدوهُ وقوفاً حول الصليب واقرّوا به ، ورسلُه ، وتلاميذُهُ ، والمؤرخون ايضاً قد اثبتوه ، فأخلقْ بمن جحدوا صلب المسيح وموته ، وقد تقرّر كلاهما ، أن يذعنوا بالحق ، فانّ الاصرار على الخطأ جامع بين سفاهة الرأي وقبح المكابرة ، ومفضٍ بصاحبه الى سوء المغبّة وقرع السنّ ، ساعةَ لا ينفع الندم

ثم انّ في الآية : « ضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذِلّةُ اَيْنَما ثُقِفُوا إلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ

النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »[١] وفي ما سواها من كلام القرآن الموجّه الى اليهود كفايةٌ للحكم ، بانهم انما باءوا بغضب من الله ، وضُربت عليهم المسكنة ، لانهم قتلوا الانبياء ، واذا كان هذا الاثم هو ما استنزل عليهم غضب الله ، فكيف يثبت المسلمون أن المسيح لم يكن في مَن قتل اليهود ؟ وما بالهم ينكرون صلبه ، وهو مؤيد بالحجج الدامغة ، واليهود انفسهم ما فتئوا يعترفون به ؟ ولا شيء ادلُّ على الجرم من اقرار المجرم

وتبع موتَ المسيح انبعاثُه من القبر في اليوم

---

(١) سورة آل عمران ١١٢

الثالث ، فظهر بعد البعث للرسل والتلاميذ ، مجتمعين وعلى انفراد ، في ظروف مختلفة ، مراراً توالت خلال اربعين يوماً ، فكالمهم وآكلهم ، وكلّهم صحيح العقل جميع الفكر ، ولم يكن فيهم رجل أُذن ، فما ارتاب احد منهم بأنه المسيح إلاّ توما ، بيدَ أنه ما لبث أن ايقن وزال شكّه بلمس جسمه ، ودسّ اصبعه في فُتَح جراحه ، وظهر ايضاً لخمس مئة رجل على ما روى بولس الرسول [١]

وليس في الرسل والتلاميذ ما يبعث على الشك في شهادتهم ، او يدعو الى حملها على الوَهم ونحوه ، وهم قد لزموه ثلاث سنوات ، وظهر لهم في اربعين يوماً مرّات ، فلا يمكن أن تلتبس عليهم معرفته ، إلاّ أن يكونوا قد أُصيبوا بضعف العقل ، وأن يكون

---

(١) رسالته الاولى الى اهل كورنتس ١٥ : ٦ .

ذلك داء عياء تفشّى فيهم اجمعين في آنٍ واحد ، فلم يقم من بينهم مَن يهتدي الى الحقيقة ، وهذا محال

واذا كان المسيح لم يقم من الموت ، كان عبثاً اغواء رؤساء الكهنة والشيوخ حرّاسَ القبر ، وَحضهم بالمال على الشهادة بأن تلاميذه قد تحينوا غفلتهم واخذوه خلسة

او لو ان الجند قد اغفلوا حراسته ، فألمأ الرسل بجثمانه ، اذاً لما تمالك اليهود عن شكايتهم الى الحكّام ، ولا تباطأ الحكّام في عقابهم ، ولكنهم لم يشكوهم لانهم لم يأتوا ما يستوجب الشكوى

ثم ان شدة خوف اليهود من وقوع السرقة ، واغراقهم في الحَوْل دونها لِنفيِ القيامة ، لم يكن ليُحتمل معه ترك السهر على جثمانه للجند وحدَهم ، بلا مشاركة ولا مراقبة منهم ، فقيامته اذاً على جهد اليهود ، ومغالاتهم في حفظ جثمانه ، لا تصحُّ معها

دعوى السرقة ، ولهذا لم يمنعوا الرسل من التبشير ، وكان تركهم وشأنهم مصارحة بصحة القيامة

ذلك فضلاً عن أن الرسل كانوا لِما ناب المسيح من تعذيب وصلب ، قد استولى عليهم الذعر وخوف الوقوع في ما اصاب معلمهم ، فلم تبقَ فيهم جرأة على سرقة جثمانه ، وتهييج حفائظ اليهود عليهم

ثم لو لم يقم المسيح ، لمَا استطاع رسله المعجزات لتأييد بشارتهم القائمة على معجزة القيامة ، ولا تمَّ لهم الانقلاب فجأةً من حال الجهل الى العلم ، والتكلم بلغات مختلفة ببلاغة مدهشة ، ولا تمسكوا بدينه وجابوا مناكب الارض للتبشير به ، محتملين في سبيله الاهانة والضرب ، والرجم والصلب ، وكل امر صعب

هذا ولم يُجدِ اليهودَ احتيالهم باشاعة اختلاس التلاميذ لجثمان المسيح ، ولا افلح تهديدهم في وقفِ

الناس عن الانحياز الى النصرانيـة ، ولا حوّل عنهـا
تيّـار الاهتداء اليها ، فان الناس قد دخلوا فيها افواجاً
والوفاً مؤلفة من كل شعب وطبقة ، وقامت كنيسة
المسيح على الايمان بمعجزة القيامة ، ولا جرَم ان
تأسيس النصرانية ، وانتشارها ، واستمرارها منتصرةً ،
كلّ ذلك عجائب ومفاعيل عظيمة ، تقتضي بحكم
العقل سبقَ الفاعل العظيم وتفوّقه عليها بالعظمة ،
وذلك الفاعل المنتج هذه المفاعيلَ العظيمة ، هو ولا
مِراء معجزة القيـامة ، وإلاّ فالموت بلا انبعاث من
نواميس الطبيعة ، في المخلوقات الحيّة الصائرة كلها
بالموت الى الانحلال والزوال ، فلو لم يقم المسيح ، لما
كان من فرقٍ بينه وبين تلك المخلوقات ، ولما
امكن أن يقوم تأسيس النصرانية ، وانتشـارها ،
واستمرارها منتصرةً عشرين قرناً على وهمٍ باطل ، بل
كان ايمان الرسلِ والعالم بالله صلب ثمات ولم يقم ، اعجوبةً

اعظم من اعجوبة القيامة عينها ، وحادثاً فوق ادراك العقول ، لم يدوّن التاريخ مثله منذ خلق العالم

وخلاصة القول ، أن انبعاث المسيح حادث مثبت بادلّة التاريخ ، فان روايةَ العدول من شهود العيان ، واقرارَ اليهود المطويّ تحت سكوتهم عن شكوى الرسل والجند ، وقعودِهم عن منع التبشير بالقيامة والانجيل ، على عدائهم للمسيح ، وزعمِهم أن الرسل قد اختلسوا جثمانه من القبر ، وايمانَ الرسل والمسيحيين الاولين الغيرَ المتزعزع والمثبتَ بالبينات ، وصبرَهم على الاضطهاد ومناوأةِ الخصوم ، وابسالَ نفوسهم للموت في سبيله ، وقيامَ النصرانية وما فيها من الحقائق الدينية ، والفضائل الاجتماعية ، ومزايا الآداب السنية ، على معجزة الانبعاث قيامَ المسبّبات على اسبابها ، كلّ ذلك لا يُبقي محلاً للشك في وقوع المعجزة ، واذا كانت جميع هذه الشهادات لا تثبت

انبعاث المسيح ، وجب ابطال الاخذ بالشهادة واسنادِ الاحكام اليها ، وكان باطلاً كلُّ ما بنيَ عليها من النظام الاجتماعي ، واعتقاد الاجيال ، وكلُّ ما رواه التاريخ مسنداً اليها ، وصرنا الى حال يعمُّ معها الشك في المعتقدات جملةً ، حتى تعود البصائر لا تؤنس نور الحقيقة ، فما تكون حينئذ حال الاحكام وكيف تؤيَّد حقوق الانسان ؟

ولقد حاول فريق من دُعاة الشر واشياع الباطل أن يطفئوا نور الحقيقة ، وينكروا معجزة القيامة ، فلم ترشح قرائحهم بما يؤبَه له ، ولا ظفروا ببغيتهم ، فتنصّلوا بعدئذٍ من إفكهم ، واضطُّروا الى الاقرار بوقوعها ، فقيامة المسيح التي فاء الى الاقرار بها بعد الانكار اعظم الملاحدة والمعطلة ، هي اذاً حقيقة راهنة لا ريب فيها وفوق اعتراض المعترضين

ثم تبع انبعاثَ المسيح صعودُه الى السماء في اليوم

الاربعين ، وهو الحلقة الاخيرة من سلسلة النبوءات [١]

قال القرآن : « والسَلاَمُ عَليَّ يَوْمَ وُلِدتُ ويَوْمَ امُوتُ ويَوْمَ أُبعَثُ حيًّا » [٢] وقال ايضاً : « يا عِيسَى إنّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إليَّ » [٣] والى هاتين الآيتين ينتهي البيان والتصريح بموته ، وبعثه ، وصعوده الى السماء ، وقال في آية يستنكف من صلبه حميّةً واستكباراً : « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » [٤] وليس موته بأقلّ عجباً من صلبه ، سواء كان الهاً او من روح الله

وسيهبط المسيح الارض في آخر الازمنة ليدين العالم والى هذا اشار الحديث النبوي المأثور : « لن

---

(١) سفر المزامير ١٥ : ٦ و٧ ثم ٦٧ : ١٩ ثم ١٠٩ : ١

(٢) سورة مريم ٣٣

(٣) سورة آل عمران ٥٥

(٤) سورة النساء ١٥٦

تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً مُقسطاً»[١]
فمن يكون هذا المخصوص بالارتفاع الى السماء دون
غيره من الانبياء ؟ ومن يكون الآتي ليدين العالم ؟
ولله وحده مناقشة الحساب والقضاء بالثواب والعقاب

---

(١) صحيح البخاري الجزء الثالث صفحة ١٠٧

المحاضرة السابعة

وهي

الخاتمة

ان الدين فضلاً عن كونه سبيل الآخرة ، والوصلة الى الله ، بها يُتقرَّبُ عنده زُلفى ، هو بما فيه للخلق من سُنن العدل والمساواة ، روح النظام الاجتماعي في الحياة الدنيا ، والقاعدة المثلى ، يَرُبُّ بها الحكّام رعاياهم ، ويجري عليها الآدميون في قيد من الحق والواجب ، هما ناموس التكافؤ في ضروب المعاملات ، واصناف المخالطات ، في الحياة المدنية ، المشتركة بين طبقات الناس ، الحاكم منهم والمحكوم ، والخادم والمخدوم ، يستقيم به معاشهم

ولمّا كانت الاديان مناهج العبادات للمعاد ، وقواعد المعاملات في الحياة ، كان افضلها ما كبح من أعنّة الانسان ، وقوّم حُجنته واصلح ضرائبه ، واقبل به على مهيَع السعادة ، ناهجاً له مسالك الحياة على قوانينها العادلة ، والاستعانة عليها بالوسائل المشروعة ضمن دائرة الحق والواجب بلا هضم ولا ارهاق

ولقد كان العالم قبل المسيح في غَمرة لا تنجلي ، يعبَث الانسان بالانسان ، ويسخّره في مصالحه ما شاء البغيُ والعدوان ، فالرقّ ، والنَخاسة ، والبِراز ، والضربُ ، والجرح ، والسَمْل ، والبتر ، والصَلْم ، والجدع ، شيء مأذون فيه ، والانتحار غير محظور ، والناس يباعون بيع السِلعة لوفاء الدين ، [1] والمرأة مظلومة ممتَهنة ، والدها يئدُها او يقتلها ، وزوجها يبيعها ، والنساس

(١) E. Valvekens: Foi et Raison ; éd. Jules de Meester 1907 p. 426.

يتداولونها عاريَّةً ، ويتبسطون في اهانتها ، [١] ولم يقم في المشترعين قبل المسيح من احتفظ لها بحق ، وربُّ الاسرة مطلق التصرف في بنيه ، فان الشريعة الوثنية في آثينا وروما وسواهما ، كانت تبيح قتل الابكار من النراريّ ، وذبحهم ، وتقديمهم قرابين للآلهة ، واذا ولد لواحد ابن ، جيء به وطُرح على قدميه ، فإن قبله واعترف به تناوله بذراعيه ، وإلاَّ ، ظلَّ ملقى على الغبراء ، في ذمة القضاء ، حتى يموت جوعاً ، او يلتقطه احد عبّاد المال ، المولعين بجمعه من ايّ السبُل تأتّى ، فيفقأ عينيه ، او يشوّه خَلقه بجدع او نحوه ، ثم يرسله بعد ترعرعه معوّهاً ، يلتمس الرزق من ذوي الصدقات ، ويعود به اليه ، فيزيد على ثرائه

---

(١) **Labis: Le libéralisme, la Franc- Maçonnerie et l'Eglise Catholique.**

ما جمع المسكين بكدحه وشقائه ، [١] وكاد قتل الاطفال يشمل العالم بأسره ، حتى ان الفلاسفة من مثل افلاطون وارسطو ، لم يكونوا ينكرونه على فاعليه ، وروى التاريخ أن سارجون الاجادي ، وقورش الفارسي ، واديبوس الثيبي ، ورومليس وريمس الرومانيين ، وغيرهم قد ابسلهم والدوهم ، ولكنهم نجوا من الهلكة بحسن حظهم ، [٢] ولم يكن للانسان أن يتصرف هكذا في مثله من خلق الله

واذا انتقلنا من البحث عن الجسد الى الكلام على النفس ، فهنالك حقيقة من حقائق التاريخ لا بدّ من الجهر بها ، وهي اتساع العلوم في اليونان ، فانه كان

---

(١) De Champagny : Les Césars, T.II, L.III, ch. IV— Weiss : Apologie du Christianisme, Humanité et Humanisme, T.II, p. 206.

(٢) التاريخ العام لفيليب فان نس مير الاميركي صفحة ١١٥ حاشية ١ في مطبعة الاميركان ببيروت

للاجيال قبسَ النور ولَقاح العقول ، بما امتاز فيه كتبتهم في آثينا ورومة من علوّ الكعب في التصنيف والتأليف ، بيدَ أنّ تلك العلوم لم تكن عامة في امّتهم ، بل محصورة في فريق منها ، كان سوادهم على تفوّقهم عماةً عن حقيقة الدين ، لا المام لهم بها ، وكلُّ شيء عند جمهورهم ما خلا الله اله ، والفجور شِعار اديانهم ، وعلى مثل هذه الحال من العمى عن حقيقة الدين ، كان الكلدان والمصريون والفينيقيون والرومان ، وهم يومئذ اهل الرسوخ في العلم ، وافقهُ الشعوب للحقائق ، ومع ذلك فكانوا يسبحون للاصنام ، ويسجدون للشمس والقمر وسواهما من الاجرام ، ولاحقرِ الحيوان والنبات والجماد ، ولجّ الكفر والضلال بالناس المستسلمين لاهوائهم الفاسدة ، المستهتَرين بالقتل والنهب والفسق وسائر اشكال العهَر ، فراحوا يقيمون لرذائلهم انصاباً وتماثيل يعبدونها من دون الله ، ويتخذون للخمر آلهة يكرمونها ، بما يندي

له الجبين وتقشعر منه الابدان ، من تهتّك وافراط في كل ما هو إزراء بالله ، ولم تكن تلك الفواحش بخاصة بشعب دون غيره ، بل عامة شائعة في شعوب الارض طراً (١)

تلك حالة البشر الدينية قبل المسيح ، ولم تكن حالتهم الادبية اقل من الدينية سوءاً ، فقد بلغ بهم غلَظ الاعناق وعدم الحياء ، ركوب المنكر على حدق القوم ، وفي سرَوات الطريق ، وفي المسارح والاندية ، وتأطّم سيل الرذيلة ، فغرق في لجّته عِلية الناس وغوغاؤهم ، واضحت منازلهم وهياكلهم ، منابت غيّ ومباءات جور وفجور (٢)

فلما جاء المسيح بشريعته ، وانتشر نورها في الارض ،

(١) Labis : op. cit.

(٢) Duruy : Histoire des Romains, ch. LX — De Champagny : Les Césars, ch. III. — Renan : Les Apotres p. 317 — Pline : Ep. VII, 4 — St. Augustin : De Civit. Dei VII, 21 — Ovide : Tristes, L. II.

انقشع ظلام الوثنية ، وانكشفت الشدة عن البشر ، بما انكرت من قتل الانسان وبيعه وتعبيده ، وما بثّت فيهم من روح المساواة والاخاء ، ووطدت في العالم من دعائم السلم ، فأُديلت تلك المكاره والمناكر ، وأُبدل الخُرْق بالمحبة والقِسط والرفق ، ووَجد الناس في شريعته الالهية طلبتهم وصلاح معادهم ومعاشهم ، واهتدى منهم مَن هدى الله الى طرائق الحياة المثلى ، على قاعدة هذا العلم الالهي ، فترقّت المرأة بعد الاحتقار ، الى مقام التكريم والايثار ، وتكافأ اخياف البشر في كفتّي الحق والواجب ، وصُقلت خشنة العادات ، وانتفى الرق والنخاسة وما هنالك من اوابد التاريخ ، وصلحت بتعاليمه حال النفس والجسد ، وما اليهما من الاخلاق والملكات ، وحُبّبت العفة الى الناس ، وتدرجت الانسانية في معارج الكمالات الدينية ، والآداب الاجتماعية ، والحياة المدنية ، حتى انتهت

الى اليفاع الذي هي عليه اليوم في الشعوب الكارعين في معين الانجيل

فاذا كانت هذه المدنية ، وما فيها من مبادىء العفة ، وآيات الإخاء والرفق والمحبة ، المتجلية باجمل مظاهرها في ميامها ومستشفياتها وسائر ملاجئها الخيرية ، المتناولة بالعطف والحنان طوائف البشر كافةً ، من ثمرات الانجيل ، فثمّ دلالة واضحة ، على أن تعاليم المسيح الهية من اله ، يستوي لديه الكبير والصغير ، والغني والفقير ، لا يجحدها إلاّ من ختم الله على قلبه وذهب بسمعه وبصره

واعلم أنّ في ذلك مشابهة ومماثلة لاعمال الله في ما جاد به على الخلق بلا تمييز بينهم ، فانه جلّ علاؤه وتنزّه عن الشحّ سخاؤه ، قد غمر العالم بجزيل هباته وجليل حسناته ، فانعمَ بالهواء وشمس النهار ، على الابرار والفجّار ، وانبتَ لهم من الارض اصناف

الاشجار ، التي تؤتيهم شهي الثمار ، وفجّر ينابيع الماء الزلال الجاري في الانهار ، واخضع لهم طيور السماء وسماك البحار ، وسخّر كلّ ما في الكون لمصلحة الانسان ، على مروقه وعصيانه وقلة ايمانه ، فأوحى بالوهته الى الخلق بعجائب رحمته ، وبدائع مصنوعاته ، كما دلّ عليها المسيح بسامي تعاليمه ، وباهر آياته ، فلعمري لو وُجد من آمن بالله ، وآنس رأفته بالخلق ، من اطاعه منهم ومن عصاه ، وقاس بها ما حضّ عليه المسيح من مكارم الاخلاق ، وأمر به من البرّ والدعة والسلم ، والمحبة والاناة والحلم ، والتمس ديناً يُزلفه اليه عزّ وجلّ ، لما دانَ بدين من الاديان ، إلاّ بما شابه اعماله تعالى وشريعته ، وماثل رحمته وصنيعته

سأل الرشيدُ تيموثاوسَ الجاثليق ، قال : «أجبني عمّا اسألك باختصار : أيّ الاديان عند الله الحق ؟ »
فاجاب تيموثاوس على الفور : «الذي شريعته ووصاياه

تشاكل افعال الله » ، ثم انصرف عنه ، فقال الرشيد : « لله درّه ، فلو قال النصرانية ، لاستثارنا ، ولو قال الاسلام ، لكلّفناه الانحياز اليه ، ولكنه اجاب رمزاً ، فكان باشارته ، افصحَ منه بعبارته ، ولا شك أنه اراد دينه في ما اشار اليه ، لِما جاء في الانجيل من قول المسيح : « أحبّوا اعداءكم ، وأحسنوا الى من يبغضكم ، وصلّوا لاجل من يُعنتكم ويضطهدكم ، لتكونوا بني ابيكم الذي في السماوات ، لانه يُطلع شمسَهُ على الاشرار والصالحين ، ويمطر على الابرار والظالمين »[1]

---

(١) عن مخطوط قديم أشرنا اليه سابقاً صفحة ٣٩٩ منه

فهرس

	صفحة
(المحاضرة الاولى)	
في شهادات القرآن للنصارى بالتوحيد	٤
(المحاضرة الثانية)	
١ في أن الله تعالى احدي الذات ثلاثي الخواص	١٦
٢ في أن قول النصارى: كل واحد من الاقانيم هو الله لا يعني وجود آلهة ثلاثة	٢٠
٣ في ردّ من قال: ان النصارى باعتقادهم أن الله تعالى جوهر يجعلونه قابلاً للعرَض كسائر الموجودات	٢٦
٤ في ردّ من قال: ان النصارى يدعون الله أباً لهم ولابنه الكلمة ولا ولادة إلاّ من زوجة	٣٣

صفحة

٥ في شهادات القرآن للنصارى بالتثليث ٤٣

(المحاضرة الثالثة)

في ردّ من يتّهم النصارى بتحريف الانجيل ٤٨

(المحاضرة الرابعة)

« توطئة »

في ايمان النصارى بيسوع المسيح ٦١

١ في اتحاد الكلمة بالطبيعة البشرية ٦٢

٢ في الفرق بين الطبيعة الفردية ووجودها وثبوت امكان تخليها عنه وردِ من زعم عكس ذلك وحسب الاتحاد مستحيلاً ٦٤

٣ في ردّ من زعم اتحاد القديم الازلي بالمُحدَث الزمني امراً مستحيلاً ٦٧

٤ في ردّ من زعم اتحاد الاقانيم الثلاثة معاً بالطبيعة البشرية واجباً لا منتدح عنه لانها كلها من جوهر واحد غير متفارقة وآنس في قصر الاتحاد على الاقنوم الثاني استحالته على الاطلاق ٦٩

صفحة

٥ في إبطال قول من قال : إن كان اقنوم الكلمة قد اتحد دون الاقنومين الآخرين فقد تغيّر وفسد جوهر الثالوث الالهي إذ لا يُتصوّر انفصال احد الاقانيم واتحاده بالطبيعة البشرية دون تغير جوهر الثالوث وفساده باجمعه ٧١

٦ في تفنيد من قال : لو اتحد الله بالطبيعة البشرية لوجب أن يتكيف بحدّ ولمّا كان سبحانه غير محدود امتنع اتحاده ٧٣

٧ في ردّ من زعم تجسد الكلمة غير ضروري لخلاص النوع البشري ومستغنًى عنه بما لله عز وجل من الوسائل الكثيرة الى ذلك ٧٤

٨ في ردّ من قال : لو كان تجسد الكلمة ضرورياً لتخليص النوع البشري لتمّ منذ البدء ٧٦

٩ في إبطال زعم من قال : لو كان الكلمة قد تجسد لمحو الخطايا لوجب أن تُمحى كلها ٧٧

١٠ في تزييف زعم من قال : ان اتحاد الكلمة

صفحة

بالطبيعة البشرية يستلزم اتحاد الله بسائر الانبياء اذ لا فرق بين واحد منهم وآخر ٧٩
١١ في تفنيد من قال : ان كلمة الله اي نطقه الذي حلّ بمريم عند الاتحاد مخلوق وان المسيح ليس بابن الله ٨٤
١٢ في شهادات القرآن للنصارى بالوهة المسيح واتحاد الكلمة بالطبيعة الانسانية ٨٨

(المحاضرة الخامسة)

في تهيؤ العالم لقبول المسيح والدخول في دينه ٩٥

(المحاضرة السادسة)

« توطئة »

في رسالة المسيح والوهته ١٠٢
١ في مولد المسيح ١٠٥
٢ في حياة المسيح الى حين اظهار دعوته ١١٠
٣ في شهادات يوحنا بن زكريا برسالة المسيح والوهته ١١٤

صفحة

٤ في تعاليم المسيح ١١٨
٥ في معجزات المسيح ١٢٩
٦ في نبوءات المسيح ١٤٦
٧ في قداسة المسيح ١٥٩
٨ في آلام المسيح وموته ١٦٧
٩ في ثبوت موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء ١٨٣

(المحاضرة السابعة)

« وهي »

الخاتمة ١٩٦

